جامعة الأزهر
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
كلية معتمدة من الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد

الخصومات في ضوء سورة (ص) أسبابها وعلاجها

(دراسة موضوعية)

إعداد

د. أيمن عبد الراضي عبد السلام مبروك

مدرس التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية العدد الثالث والأربعون، لعام ١٤٤٦هـ-
ديسمبر ٢٠٢٤م والمودعة بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢٤/٦١٥٧ والترقيم الدولي
الطباعي ٢٩٧٤-٤٦٦٠ I.S.S.N و ٢٩٧٤-٤٦٧٩ The Online ISSN

الخصومات في ضوء سورة (ص) أسبابها وعلاجها (دراسة موضوعية)

أيمن عبد الراضي عبد السلام مبروك.
قسم التفسير وعلوم القرآن. كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية. جامعة الأزهر. مصر
البريد الإلكتروني: ١٦١١٠١٠٠٥٨@azhar.edu.eg

ملخص البحث

هذا بحث بعنوان: الخصومات في ضوء سورة (ص) يفصح عن أسبابها ويبين علاجها من خلال التفسير الموضوعي لآياتها، ويتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، وخمسة فصول، وخاتمة.

أما المقدمة: ففيها أهمية الموضوع، وإشكالياته، وحدوده، وأسباب اختياره، وخطته، ومنهجه.

وأما التمهيد فيشتمل على ثلاثة مطالب التعريف بالخصومة وأنواعها والتعريف بالسورة الكريمة وهي كما يأتي:

المطلب الأول: الخصومة في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: من أنواع الخصومات في القرآن.

المطلب الثالث: التعريف بالسورة الكريمة.

وأما الفصل الأول: فهو بعنوان: خصومة الكفار مع النبي ﷺ.

وأما الفصل الثاني: فهو بعنوان: اختصام الخصمين عند داود عليه السلام.

وأما الفصل الثالث: فهو بعنوان: خصومة أهل النار(تخاصم أهل النار).

وأما الفصل الرابع: فهو بعنوان: خصومة إبليس ربه في أمره بالسجود لآدام عليه السلام

وأما الفصل الخامس: فهو بعنوان: خصومة إبليس ربه في شأن بني آدم.

وأما الخاتمة فقد ضمنتها أهم الدروس المستفادة من السورة الكريمة.

ثم ذيلت البحث بفهرس للمصادر والمراجع وفهرس للموضوعات.

الكلمات المفتاحية: الخصومات. الخصومات في سورة (ص). الخصومات في ضوء سورة (ص) أسبابها وعلاجها (دراسة موضوعية).

In the name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful Disputes in the Light of Surah (Sad) Their Causes and Treatment (Objective Study)

Ayman Abdel Rady Abdel Salam Mabrouk.
Department of Interpretation and Quranic Sciences, Faculty of Fundamentals of Religion and Call in Menoufia, Al-Azhar University. Egypt.
Email: ١٦١١٠١٠٠٥٨@azhar.edu.eg

Abstract:

This is a research entitled: Disputes in the Light of Surah (Sad) that reveals their causes and clarifies their treatment through the objective interpretation of its verses. The research consists of an introduction, a preface, five chapters, and a conclusion.

As for the introduction: it includes the importance of the topic, its problems, its limits, the reasons for choosing it, its plan, and its method.

As for the preface, it includes three topics defining the dispute and its types and defining the Holy Surah, as follows:

The first topic: Disputes in language and terminology.

The second topic: Types of disputes in the Quran.

The third topic: Definition of the Holy Surah.

Chapter One: It is titled: The Dispute of the Infidels with the Prophet (PBUH Chapter Two: It is titled: The Dispute of the Disputants before David (PBUH).

Chapter Three: It is titled: The Dispute of the People of Hell.

Chapter Four: It is titled: The Dispute of Satan with his Lord in His Order to Prostrate to Adam (PBUH).

Chapter Five: It is titled: The Dispute of Satan with his Lord in the Matter of the Children of Adam.

As for the conclusion, I included in it the most important lessons learned from the Noble Surah.

Then I concluded the research with an index of sources and references, and an index of topics.

Keywords: of the research: Disputes in Surah (Sad). Disputes in the Light of Surah (Sad): Their Causes and Treatment (An Objective Study).

المقدمة:

الحمد لله ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شاء من شيء بعد، وأصلي وأسلم على أشرف خلقه وسيد رسله محمد ﷺ.

وبعد:

فإن الله أنزل القرآن على أمة أمية ترعى الغنم فلما تمسكوا به وعملوا بأحكامه واستضاءوا بأنواره أصبحوا قادة للأمم، يخرجون بهديه الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

وإن القراءة المتدبرة لسور القرآن والفهم لمعانيها ومقاصدها جعلت العلماء يقسمون سوره باعتبار طولها وقصرها، وما نزل بمكة وما نزل بالمدينة، وأول ما نزل وآخر ما نزل، والحضري والسفري، والأرضي والسمائي وهكذا... لكن القرآن مازال يبوح بأسراره ومعانيه يستخرج كل جيل منها بقدر طاقته البشرية حيث نستطيع بهذا التدبر الخروج بتقسيمات موضوعية جديدة لمعاني هذه السور مما يدل على الوحدة الموضوعية لكل سورة والقول بأن لكل سورة شخصية مستقلة مبنية على أسس وقواعد وأهداف متعددة هي محاور أساسية للسورة.

ومن السور التي وفقني الله للكتابة فيها مقسماً آياتها حسب محور واحد أساسي تصب فيه جميع محاور السورة سورة (ص) فقد تكرر لفظ الخصومة فيها نصاً في عدة آيات، وجاءت الخصومة في مواضع أخرى من السورة دون نص عليها لوضوحها وضوح الشمس في رابعة النهار بل ونص القرآن على تلك العداوة في سور أخرى لذا كان عنوان بحثي: الخصومات في ضوء سورة (ص) أسبابها وعلاجها (دراسة موضوعية)

أهمية الموضوع

يستمد الموضوع أهميته من:

١- كون التفسير الموضوعي من أجل أنواع التفاسير التي ينبغي نشرها بين الناس لإرشادهم إلى ما تضمنه القرآن من هدايات.

٢- أن الخصومات في سورة(ص) أخذت صوراً متعددة وأنماطاً شتى منها ما يتعلق بالدنيا ومنها ما يتعلق بالآخرة ومنها ما يتعلق بالملأ الأعلى مما جعل هذا الهدف هو الهدف الأساسي والمحور البارز فيها.

٣-أن التفسير الموضوعي هو خلاصة أنواع التفاسير، فمن خلاله نستطيع مواكبة الأحداث والمستجدات والنوازل وذلك ببيان وجه الحق فيها بأسهل الطرق وأيسرها ملمين بأطراف الموضوع من جميع الجوانب.

إشكاليات البحث

ترد مجموعة من التساؤلات حول هذا البحث تحتاج إلى أجوبة منها:

١- ما سبب الخصومات التي جاءت في السورة الكريمة؟

٢- هل الخصومات من الطرفين أم من طرف واحد؟

٣- هل الخصومة في جانب الله من قبيل الحقيقة أم من قبيل المجاز ؟

٤ – هل وضع القرآن علاجاً لتلك الخصومات؟

٤- لماذا بدأت السورة الكريمة بقصة داود وسليمان -عليهما السلام- دون غيرهما من الأنبياء؟ وما سبب الإطناب في قصتهما؟

حدود البحث

هذا البحث منصبٌّ على تفسير الخصومات في ضوء سورة (ص) يفصح عن أسبابها و يبين علاجها من خلال التفسير الموضوعي لآياتها.

أسباب اختيار الموضوع

(١) أن سورة(ص) أول سورة مكية ورد فيها قصة خلق آدام عليه السلام والأمر بالسجود له وخصومة الملأ الأعلى في هذا.

(٢) أردت معرفة قول أهل التحقيق في الخصومة التي حدثت بين يدي داود عليه السلام للوقوف على القول الفصل فيها.

(٣) أن هذه السورة قد تضمنت عدداً من الخصومات مبينة أسبابها وكيفية علاجها تارة تصريحاً وتارة تلميحاً.

(٤) الاستفادة من علاج القرآن لهذه الخصومات في حياتنا اليومية فالدنيا لا تخلو من خصومة حبيب أو قريب.

خطة البحث

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أقسمه إلى مقدمة، وتمهيد، وخمسة فصول، وخاتمة.

أما المقدمة: ففيها بيان أهمية الموضوع، وإشكالياته، وحدوده وأسباب اختياره، وخطته، ومنهجه.

وأما التمهيد فيشتمل على ثلاثة مطالب التعريف بالخصومة وأنواعها والتعريف بالسورة الكريمة وهي كما يأتي:

المطلب الأول: الخصومة في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني: من أنواع الخصومات في القرآن.

المطلب الثالث: التعريف بالسورة الكريمة.

وأما الفصل الأول: فهو بعنوان: خصومة الكفار مع النبي ﷺ.

وأما الفصل الثاني: فهو بعنوان: اختصام الخصمين عند داود عليه السلام.

وأما الفصل الثالث: فهو بعنوان: خصومة أهل النار(تخاصم أهل النار)

وأما الفصل الرابع: فهو بعنوان: خصومة إبليس ربه في أمره بالسجود لآدام عليه السلام

وأما الفصل الخامس: فهو بعنوان: خصومة إبليس ربه في شأن بني آدم.

وفي كل فصل من الفصول السابقة أقوم بتفسير مقطع من مقاطع السورة الكريمة، ذاكراً ما يلي:

- المناسبة بين آيات هذا الفصل و آيات الفصل السابق.
- أسباب الخصومة الواردة في الآيات.
- علاج القرآن لكل خصومة.
- وأما الخاتمة فقد ضمنتها أهم الدروس المستفادة من السورة الكريمة.

ثم ذيلت البحث بفهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

منهج البحث

اتبعت في كتابة هذا البحث المنهج التحليلي الذي يقوم على تحليل النص تحليلاً وافياً، واتبعت في كتابته الخطوات التالية:

(١) قمت بتعريف الخصومة في اللغة والاصطلاح وأنواعها على وجه العموم، والتعريف بسورة (ص) من حيث أسمائها وعدد آياتها وموطن نزولها وسببه وأهدافها والمناسبات في السورة الكريمة.

(٢) عنونت لكل مجموعة من الآيات بعنوان الخصومة التي تتناولها.

(٣) قمت بذكر وجوه المناسبات بين هذه الفصول المختلفة.

(٤) ذكرت أسباب الخصومة التي تتناولها كل مجموعة من الآيات.

(٥) استخرجت العلاج الذي وضعه القرآن لكل خصومة من الآيات سواء أكان تصريحاً أم تلميحاً.

(٦) عزوت الآيات القرآنية الواردة في البحث إلى سورها، بذكر اسم السورة، ورقم الآية في صلب البحث تخفيفاً على الحاشية.

(٧) قمت بتخريج الأحاديث الواردة في البحث من مصادرها الأصيلة، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليهما أو إلى أحدهما.

(٨) وثقت النصوص المنقولة توثيقاً علمياً دقيقاً من مصادرها الأصلية بذكر الجزء والصفحة.

(٩) ذكرت المرجع أو المصدر ومؤلفه ورقم الجزء والصفحة لأول مرة بدون توثيق كامل مكتفياً بذكر هذا التوثيق في فهرس المصادر والمراجع طلباً للاختصار وتقديراً لوقت القارئ الكريم

(١٠) قمت بذكر أهم الدروس المستفادة من السورة الكريمة وذلك في خاتمة البحث.

(١٤) قمت بإعداد فهرس للمراجع، وفهرس للموضوعات.

الدراسات السابقة

١- (الخصومة في القرآن) مقال في المجلة العربية للدراسات الإسلامية والشرعية، الناشر: المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، المؤلف الرئيسي: أبو هلاله، مخلد إسماعيل سليمان. العدد: ع٥.

وقد تناول الباحث في مقاله الصيغ الواردة في القرآن للفظة (الخصومة)على وجه العموم وعددها ثماني عشرة وهي ما بين اسم وفعل ومصدر، وذكر الباحث في مقاله بعضاً من الخصومات التي ورت في القرآن مدللاً على كلامه بالآيات الواردة في ذلك دون التعرض لتفسيرها، فكان مقالة منصباً على جمع الصيغ المتعلقة بلفظة الخصومة في القرآن مستدلاً بآيات من كتاب الله على بعض أنواعها.

هذا وقد حاولت – قدر طاقتي – أن يكون تفسيري للخصومات في ضوء سورة (ص) سهلاً واضحًا مفهوم العبارة، بعيداً عن التقعر والغموض والإبهام، وافي الغرض فيما سيق لأجله، وبذلت فيه حسب ظني قصارى جهدي، ليكون نافعاً لنفسي ولغيري في إنهاء كثير من الخصومات التي تعرض للمسلم في حياته والتي قد يتنكب الطريق أو تذل قدمه بسببها فيكون القرآن خير معين له في إنهائها فإن كان ما سطرته صواباً فهو فضل من الله، وإن كان غير ذلك فإن التقصير من نفسي، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمهيد: تعريف الخصومة وأنواعها والتعريف بالسورة الكريمة

المطلب الأول: الخصومة في اللغة والاصطلاح:

أولاً: الخصومة لغة: الجَدَل [١]، فالخاء والصاد والميم أصلان: أحدهما المنازعة، والثاني جَانِب وعاء. فالأول الخصم الذي يخاصم.

والأصل الثاني: الْخُصْم جَانِب الْعِدْل[٢] الذي فيه الْعُرْوَةُ.

ويمكن أن يجمع بين الأصلين فيرد إلى معنى واحد، ذلك أن جانب العِدْل مائل إلى أحد الشِّقين، والخَصْم المُنازِع في جانب فالأصل واحد[٣].

فالمادة تدور حول الجدال والنزاع والميل إلى أحد جانبي الشيء.

ثانياً: الخصومة اصطلاحاً: الجَدَل والغَلَب حيث يدفع أحد الخصمين ما يثبته الآخر ويثبت ثانيهما ما ينفيه صاحبه [٤].

وهذا التعريف يشبه تعريف الجدل عند صاحب التعريفات: فهو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله: بحجة، أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة[٥].

---

(١) لسان العرب (١٢/ ١٨٠) بتصرف.

(٢) العِدْل: نِصفْ الحِمْل يكون على أَحَدِ جَنْبَيِ البعيرِ. المحكم والمحيط الأعظم (٢/ ١٣)

(٣) مقاييس اللغة (٢/ ١٨٧) بتصرف

(٤) مجلة المنار (٢٧/ ٥٢١) مقال لمحمد أحمد الغمراوي.

(٥) التعريفات (ص: ٧٤)

المطلب الثاني: من أنواع الخصومات في القرآن:

إن الخصـــومات التي ذكرها القرآن الكريم أخذت صـــوراً متعددة وأنماطاً متنوعة وأزمنـة متباعـدة وأمكنـة مختلفـة منهـا مـا وقع ومنهـا مـا هو محتم الوقوع، ومن هذه الخصومات خصومة إبليس ربه حول السجود لآدم، ومنها خصومة البشر بعضهم مع بعض سـواء أكان ذلك في الدنيا أم في الآخرة، ومنها خصـومة إبليس بني آدم، ومنها خصـومة الأقوام مع رسـلهم وأنبيائهم وصـالحي أقوامهم، وسـوف أذكر طرفاً من أنواع الخصومات التي وردت في القرآن على وجه الإجمال قبل الشروع في أنواع الخصومات التي وردت في سورة (ص) على وجه التفصيل.

أولاً: خصومة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم:

هذه الخصومة ذكرها ربنا ﷻ في سور منها البقرة وآل عمران والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه و(ص) ولكنها ذكرت بلفظ الخصومة صراحة في سورة (ص) قال ﷻ ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة ص:٦٩-٧١].

ثانياً: خصومة البشر بعضهم مع بعض سواء أكان ذلك في الدنيا أم في الآخرة:

(١) خصومة البشر في الدنيا:

منها قوله ﷻ: ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩] نزلت الآية في يوم بدر، فعن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة» وقال قيس بن عباد: وفيهم أنزلت: ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩] قال: " هم الذين تبارزوا يوم بدر: حمزة، وعلي، وعبيدة، أو أبو عبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة "[(١)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي،باب قتل أبي جهل (٥/ ٧٥)(٣٩٦٥)

ومنها قوله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٤] فهذه الخصومة حدثت بين تلاميذ عمران والد السيدة مريم–عليها السلام– لما اقترعوا وتسابقوا على كفالتها بعد موته رغبة في الثواب، ورداً للجميل.

ومنها قوله ﷻ: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يس: ٤٩] قال ابن كثير: هذه –والله أعلم– نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك إذ أمر الله عز وجل إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها(١).

ومنها قوله ﷻ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠] فهذه خصومة بين طلاب الدنيا وبين أهل العلم الذين علموا حقيقة الدنيا.

(٢) خصومة البشر في الآخرة:

منها ما يكون بين الأتباع والمتبوعين كقوله ﷻ: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٦٦-١٦٧].

ومنها ما يكون بين الضعفاء والمستكبرين كقوله ﷻ: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٦/ ٥١٦)

مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢١]

ومنها ما يكون بين أهل العلم وغيرهم كقوله ﷻ: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [سورة الروم:٥٥-٥٧].

ثالثاً: خصومة إبليس بني آدم:

وجاءت خصومة إبليس لبني آدم في الدنيا والآخرة، ومما جاء في أمر الدنيا قوله ﷻ: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف:١٦-١٧].

ومما جاء في أمر الآخرة قوله ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]

رابعاً: خصومة الأقوام لرسلهم وأنبيائهم وصالحي أقوامهم:

ذكر القرآن ما دار بين الأقوام ورسلهم وأنبيائهم في كثير من سوره على سبيل الإشارة أحياناً، وعلى وجه التفصيل أحياناً لحكم يقتضيها المقام لا سيما قصة نوح وموسى وهود وصالح وخاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أما ما كان بين الصالحين وأقوامهم كما هو الحال في ياسين وغافر قال ﷻ: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا

وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة يس:٢٠-٢١]، وقال ﷻ: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر: ٢٨].

وبعد الحديث بإيجاز عن تعريف الخصـــومة في اللغة والاصـــطلاح وذكر طرفاً منها مما ورد في كتاب الله، أنتقل إلى مقدمة بين يدي السورة الكريمة.

المطلب الثالث: التعريف بالسورة الكريمة ويتضمن ما يأتي:

أولاً: اسمها وعدد آياتها:

تسمى هذه السورة الكريمة بسورة (ص) [١]، ويقال لها: سورة داود عليه السلام [٢]، وعدد آياتها: ثمانون وخمس آيات في البصري، وست في عدد المدنيين والمكي والشامي، وثمان في الكوفي [٣].

ثانياً: موطن نزولها وسببه:

سورة (ص) مكية بإجماع من المفسرين[٤]، وسبب نزولها: ما روي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: مرض أبو طالب فجاءته قريش، وجاءه النبي ﷺ وعند أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه قال: وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال: «إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم العجم الجزية». قال: كلمة واحدة؟ قال: «كلمة واحدة» قال: " يا عم يقولوا: لا إله إلا الله " فقالوا: إلها واحدا ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق. قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ ﴾ [سورة ص: ١-٢].- إلى قوله - ﴿ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ ﴾ [ص: ٧][٥].

---

(١) جامع البيان ت شاكر (٢١/ ١٣٥)، الكشاف (٤/ ٧٠)، المحرر الوجيز (٤/ ٤٩١)، التفسير الكبير (٢٦/ ٣٦٥).

(٢) جمال القراء (ص: ٩١)

(٣) البيان في عد آي القرآن (ص: ٢١٤)

(٤) المحرر الوجيز (٤/ ٤٩١)، زاد المسير (٣/ ٥٥٧)، تفسير القرطبي (١٥/ ١٤٢)

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ، ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس (٢/ ٤٨٣) (٢٠٠٨)، قال العلامة شاكر :إسناده صحيح. والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ، =

ثالثاً: أهدافها:

إن تفسير السورة تفسيراً موضوعياً بعد تحديد أهدافها يظهر الروابط بين مقاطعها وموضوعاتها، فهناك سور لها هدف واحد كسورة الإخلاص هدفها الدعوة إلى التوحيد، وهناك سور لها هدفان كسورة القدر هدفاها بيان مكانة القرآن وفضل ليلة القدر، وهناك من السور ما تعددت أهدافها لكنها مترابطة مع بعضها البعض ومن السور التي تعددت أهدافها سورة (ص) فهي سورة مكية ومن أهداف السور المكية:

(١) الدعوة إلى التوحيد.

(٢) بيان صدق النبي ﷺ وأن ما جاء به حق يجب الإيمان به.

(٣) الإيمان باليوم الآخر.

(٤) ذكر ت السورة عدداً من الأنبياء للتأسي بهم، منهم من ابتلي بالنعماء كسليمان، ومنهم من ابتلي بالضراء كأيوب – عليهم السلام– وأثنى الله عليهما ثناء واحد.

(٥) إيراد السورة بعض الخصومات مفصحة عن أسبابها مبينة لعلاجها، وهذا الهدف يظهر واضحاً جلياً في مفتتح السورة وخواتيمها وثنايها، بل هو الهدف الرئيسي الذي تصب فيه بقية الأهداف، ولذا جعلته محل نظري وموطن بحثي، وسوف أبرز ذلك من خلال تقسيم البحث وعناوينه.

باب: ومن سورة ص (٥/ ٣٦٦)(٣٢٣٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح، المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة (٢/ ٨٣٩).

رابعاً: المناسبات في سورة(ص):

(١) المناسبة بينها وبين ما قبلها: هذه السورة بعد الصافات كطس بعد الشعراء، في كونها متممة لها بذكر من بقي من الأنبياء، ممن لم يذكروا فيها [١].

(٢) المناسبة بين فاتحتها وخاتمتها.

فقد أثبتت هذه الآية[٢] من كون القرآن ذكراً ما أثبتته أول آية فيها على أتم وجه مع زيادة الوعيد، فانعطف الآخر على الأول، واتصل به أحسن اتصال وأجمل [٣].

وبعد ذكر ما تقدم أبدأ بحول الله وطوله في الفصل الأول وعنوانه الفصل الأول: خصومة الكفار مع النبيﷺ.

(١) أسرار ترتيب القرآن (ص: ١٢٧).

(٢) ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨].

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦/ ٤٣٥).

الفصل الأول: خصومة الكفار مع النبي ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَاقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ۝٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۖ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ۝١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝١٦ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٧ ﴾ [سورة ص: ١-١٧].

بين يدي الفصل الأول:

قبل الحديث عن الخصومات الواردة في السورة الكريمة أنوه على شيئين ينبغي التنويه عليهما:

أحدهما: أن الخصومات في هذه السورة الكريمة من طرف واحد إلا ما كان بين أهل النار بعضهم مع بعض.

ثانيهما: أن الخصومة في جانب الله من قبيل المجاز [1]

(١) قال الرازي: فإن قيل الملائكة لا يجوز أن يقال إنهم اختصموا بسبب قولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فإن المخاصمة مع الله كفر، قلنا لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب، وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز، فلهذا السبب =

والخصومات التي ذكرت في السورة خصومات متنوعة أولها: خصومة الكفار مع النبيﷺ، وثانيها: بين الخصمين اللذين حضرا أمام داود وهاتان الخصومتان حدثتا في الدنيا، وثالثها: خصومة أخبر القرآن بوقوعها في الآخرة بين أهل الشرك مع بعضهم البعض، وختمت تلك الخصومات بما حدث في الملأ الأعلى من خصومة إبليس ربه بامتناعه عن السجود لآدام و خصومته لذريته.

وبعد هذا التمهيد أنتقل إلى أسباب الخصومة الكفار للنبي ﷺ.

أسباب خصومة الكفار مع النبي ﷺ:

افتتحت هذه السورة بحرف من حروف التهجّي وهو ﴿ صٓ ﴾ [ص: ١] جيء به تحدياً ًَ وإيقاظاً وتنبيه، ولم تفتتح سورة من سور القرآن بهذا الحرف غيرها، لذا سميت به اشتهرت به دون غيره [١].

حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه. تفسير الرازي (٢٦/ ٤٠٨).

ومما ورد في السنة من هذا القبيل: ما جاء عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللهﷺ :" احتجت النار، والجنة، فقالت: هذه يدخلني الجبارون، والمتكبرون، وقالت: هذه يدخلني الضعفاء، والمساكين، فقال الله عز وجل لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء – وربما قال: أصيب بك من أشاء – وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها ". أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦) (٤/ ٢١٨٦) (احتجت) أي اختصمت. الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (٢٥/ ٥٢٠).

(١) قال الزركشي: لا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز. البرهان (١/ ٢٧٠) بتصرف.

وبعد هذا الافتتاح، جاء القسم بالقرآن فقال: ﷻ ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ ﴾ [ص: ١] وواو القسم هي أكثر حروف القسم ذكراً في القرآن، وكلمة(ذِي) لا تضاف إلا إلى الأشياء الرفيعة [١].

إن القرآن ذو رفعة وشرف ومكانة ومنزلة عالية، قال ﷻ: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠ ﴾ [الأنبياء: ١٠] فمن أخذ القرآن بقوة قولاً وعملاً ومنهجاً وسلوكاً نال شرفي الدنيا والآخرة، وكان من أهل الله الذين هم أولياؤه وأحبابه، فعن أنس ﷺ قال: قال ﷺ: " إن لله أهلين من الناس "، فقيل: من أهل الله منهم؟ قال: " أهل القرآن هم أهل الله وخاصته "[٢].

وبعد هذه البداية المبينة لمكانة القرآن وشرفه ومنزلته، انتقلت الآيات إلى أول أسباب الخصومة بين أهل الشرك والنبي ﷺ، **فذكرت أن الكبر** [٣]**والعناد هما أول تلك الأسباب** قال ﷻ: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ ﴾ [ص: ٢]، قال الطاهر بن عاشور: كل ما ذكر فيها[٤] من أحوال المكذبين سببه اعتزازهم وشقاقهم[٥].

إن ما ذهب إليه الطاهر بن عاشور حق فجميع الخصومات التي وردت في السورة الكريمة أول أسبابها الكبر والعناد، فالكفار تكبروا عن هدي القرآن، والخصومة التي حدثت بين داود عليه السلام من أسبابها التكبر بالمال والثراء كما هو الحال في شأن قارون

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٠٣)

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك (١٢٢٧٩) (١٩/ ٢٩٧) قال: شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن. و ابن ماجه في سننه، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه (١/ ٧٨) (٢١٥).

(٣) وسوف أذكر تعريف الكبر وأنواعه وعقاب فاعله في الدنيا والآخرة عند الحديث عن الخصومة الرابعة.

(٤) يعني سورة (ص)

(٥) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٠٣)

حيث ختم القرآن قصته بقوله ﷻ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٨٣]، وخصومة أهل النار بعضهم مع بعض بسبب طاعة الضعفاء للمتكبرين عن الحق قال ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سبأ: ٣١] وهذا ما يشير إليه قوله ﷻ: ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ [سورة ص:٥٩-٦٠].

وإبليس ما منعه إلا الكبر قال ﷻ: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص: ٧٥].

وبعد ذكر الآيات السبب الأول من الخصومة ذكرهم ربنا ﷻ بهلاك الأمم السابقة على وجه الإجمال وكانوا أشد منهم كبراً وعناداً وقوة وآثاراً في الأرض فقال ﷻ: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة ص:٣].

فلما عاينوا العذاب استغاثوا، قال ﷻ: ﴿ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾ [ص: ٣]، قال الحسن: نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل(١).

ولم يقبل الله إيمانهم لمجيئه على وجه الغلبة والاضطرار كحال فرعون عند معاينته العذاب، قال ﷻ: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة يونس:٩٠-٩١].

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٤٨٢)

وقال ﷻ في شأن الأمم المكذبة لما جاءهم العذاب: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة غافر:٨٤-٨٥]. ولم يستثن ربنا ﷻ من هذا الأمر إلا قوم يونس عليه السلام فقال ﷻ: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [سورة يونس:٩٨].

قال البقاعي: قرر سبحانه في غير موضع أن التوبة لا تنفع إلا عند التمكن والاختيار لا عند الغلبة والاضطراب(١).

ثم ذكرت الآيات بعد ذلك جملة من أسباب الخصومات والمطاعن التي **مبعثها الإعجاب**(٢) فقال ﷻ ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص: ٤] فالآية الكريمة **ذكرت السبب الثاني من الخصومة المترتب على الإعجاب وهو كونه ﷺ نبياً من أنفسهم حيث اصطفاه الله بتلك المنزلة العالية والمكانة الرفيعة**، قال: ﷻ ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ ﴾ [ص: ٨]، قال جعفر بن أبي طالب: قال النجاشي: ما هذا الدين؟ قالوا: أيها الملك! كنا قوما على الشرك نعبد الأوثان ونأكل الميتة ونسيء الجوار ونستحل المحارم والدماء فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته(٣)

إن أهل الشرك يستبعدون أن يأتي رسول من أنفسهم يعرفون صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه وشأن العرب شأن غيرهم من الأمم السابقة في هذه الخصومة مع أنبيائهم قال

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦/ ٣٢٦).
(٢) العجب: تغير النفس بما خفي سببه وخرج عن العادة مثله. التعريفات (ص: ١٤٧)
(٣) أخرجه أحمد في مسنده ت شاكر، مسند أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين، حديث جعفر بن أبي طالب وهو حديث الهجرة (٢/ ٣٥٤)(١٧٤٠) إسناده صحيح،سير أعلام النبلاء ط الحديث (٣/ ١٣٨)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:٢٣-٢٥].

تشابهت القلوب وتوارثت العادات، وترتب على هذا العجب اتهامه بالسحر والكذب، فما ادعى محمد النبوة من وجهة نظرهم إلا لكونه ساحراً كذاباً، قال الدكتور عبد العظيم المطعني: هذه النسب – كما زعموا – إنما صاروا إليها لأنهم وجدوا في القرآن عِزة وغرابة فقالوا: إنه سحر والسحر – كما هو معروف – يُنسب إليه ما لا تجرى به العادة فدلت هذه النسبة على أنهم كانوا يرون أنفسهم دونه(١).

والسبب الثالث للخصومة المترتب على الإعجاب إنكارهم للتوحيد فقال ﷻ: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص: ٥] وهذا الأمر أشد إعجاباً من الأول –من وجه نظرهم– لذا ذكر القرآن لفظ الإعجاب بِوَزن لا مثل له في القرآن كله ليدلل على مدى تمكن الخصومة منهم حيث أشربوا بها قلوبهم.

قال الطاهر ابن عاشور: ﴿ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾: وصف الشيء الذي يتعجب منه كثيراً لأن وزن فُعال بضم أوله يدل على تمكن الوصف مثل: طوال، بمعنى المفرط في الطول (٢).

وانطلق أشرافهم وأصحاب الرأي فيهم بين الناس يدعونهم إلى الصبر على ما أتى به محمد من القول بالتوحيد فهو أمر يُمكر بنا ويُدبر لنا، فعن ابن عبَّاسٍ ﷺ قال: مرض أبو طالب، فأتته قريش، وأتاه رسول الله ﷺ يعوده، وعند رأسه مقعد رجلٍ، فقام أبو جهل، فقعد فيه، فقالوا: إن ابن أخيك يقع في آلهتنا. وقال: ما شأنُ قومك يشكونك؟

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١/ ٣٠٢)
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢١٠)

قال: (يا عم، أُريدهم على كلمة واحدة تدينُ لهم بها العرب، وتؤدي العجم إليهم الجزية) قال: ما هي؟ قال: (لا إله إلا الله) فقاموا فقالوا: أَجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ قال: ونزل (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) فقرأ حتى بلغ: (إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) ولفظ الترمذي إلى قوله: (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ) [1].

فلما خرج القوم من عند أبي طالب خرجوا مصرين على كفرهم وعنادهم وصلفهم، وأخذوا يدعون الناس إلى الثبات على الكفر والصبر على عبادة الآلهة قال: ﷻ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص: ٦]، قال الشوكاني: قائلين لبعضهم بعضا امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه واصبروا على آلهتكم أي: اثبتوا على عبادتها[2]

ولقد ساقت الآيات حجتهم في إنكار التوحيد فقال ﷻ: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٧] أي ما كان حجتهم فيما ذهبوا إليه من إنكار التوحيد إلا أنهم لم يجدوا آبائهم عليه بل تعددت آلهتهم وتنوعت و كان منها الخاص ومنها العام.

ولقد كان من عادات العرب تعظيم شأن آبائهم وذي الشيبة فيهم، فلذلك أنكروا على رسول الله أن يأتي بما يخالف آباءهم ومن هذا قوله ﷻ: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٢٤﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣].

ولما كانت العرب تعظم شأن أبيها إبراهيم وتفتخر بالانتساب إليه، ذكرهم القرآن بأن أباهم إبراهيم هو إمام الحنفاء وأبو الأنبياء وخليل الرحمن ومكسر الأصنام وأمرهم

(١) سبق تخريجه (ص:١٣)
(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٤٨٣)

باتباعه فقال ﷻ: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۖ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٥] وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠]، قال الواحدي: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ الذي يقوله ﴿ فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فيما أدركنا عليه آباءنا ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾ زورٌ وكذب[1].

والسبب الرابع للخصومة المترتب على الإعجاب الحسد[2] والشك[3] قال ﷻ: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ [ص: ٨] فقد تمنى هؤلاء زوال النبوة عنه ﷺ، وشكوا في اختصاص الله له من بينهم بهذا الأمر الجلل الذي يكسب فخار الدهر، والشك جاء نابعاً من الحسد ومترتب عليه، وصرح القرآن بذلك فقال ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقال صرح بهذا الحقد الدفين من أهل الشرك أبو جهل فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه[4].

---

(١) الوجيز للواحدي (ص: ٩١٩)

(٢) الحسد: تمني زوال نعمة المحسود إلى الحاسد. التعريفات (ص: ٨٧) وسوف أتكلم عنه بشيء من التفصيل عند الخصومة الرابعة.

(٣) الشك: هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك. التعريفات (ص: ١٢٨)

(٤) دلائل النبوة للبيهقي محققا (٢/ ٢٠٧) ،تفسير ابن كثير ط العلمية (٥/ ٧٧)

قال الزمخشري: أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد على ما أوتى من شرف النبوّة من بينهم (١).

وهذا شأن اليهود مع رسول ﷺ قال ﷻ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء: ٥٤] قال الواحدي: والمعنى: أيحسدون النبي عليه السلام على النبوة وكثرة النساء وقد كان ذلك في آله لأنه من آل إبراهيم عليه السلام (٢)، ولم يقتصر الأمر على حسدهم لرسول الله ﷺ بل تعدى ذلك إلى الصحابة الكرام رضي الله عنهم، قال: ﷻ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وصرح بهذا الحقد حيي ابن أخطب لما سئل عن إيمانه برسول الله قال: عداوته والله ما بقيت (٣).

وقد بينت السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم أن اليهود يحسدون أهل الإيمان على وجه العموم، ولكن يزداد في ثلاثة أمور القبلة والتأمين والجمعة فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: (" إن اليهود قوم حسد وإنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها

(١) تفسير الزمخشري (٤/ ٧٤)
(٢) الوجيز للواحدي (ص: ٢٦٩)
(٣) الروض الأنف ت السلامي (٤/ ٢٠٧) قال الحافظ العراقي: منقطع . تخريج أحاديث الإحياء (ص: ١٠٨٩).

وضـــلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضـــلوا عنها , وعلى قولنا خلف الإمام: آمين وعلى السلام) [1].

إن ما جاء به أهل الكفر قلباً للحقائق وإنكاراً لها وإلباســـاً للباطل ثوب الحق فهم يعلمون أن رسول الله أصدق الناس، وما جربوا عليه كذباً قط، ومع ذلك اتهموه بالكذب، وأنكروا التوحيد الذي هو الحق الذي لا جدال ولا مرية فيه فجعلوه مختلق من قبل محمد وأخذوا يدافعون وينافحون عنه ويدعون الناس إلى الصـــبر والثبات على كفرهم وعبادة آلهتهم، قال محي الدين درويش: قاسوا الغائب على الشاهد جهلا منهم وارتطاما بسوء الغفلة[2] وقال الزمخشري: قولهم إن هذا إلا اختلاق كلام مخالف لاعتقادهم فيه يقولونه على سبيل الحسد[3]

ثم مضت الآيات تبين أن الذي حملهم على تلك الخصومة عدة أمور منها عدم رؤيتهم العذاب ولو عاينوه لتدبروا الآيات التي أتى بها ﷺ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ ﴾ [ص: ٨] ومنها أنهم حكموا في أمر النبوة وفق أمور دنيوية وأهواء شخصية حيث المال والجاه والسلطان، والنبوة من أعظم الرحمات الربانية والعطايا الإلهية لا تخضع لما ذهبوا إليه فقال ﷻ: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾ [ص: ٩- ١٠] لكن قسمة الله على خلاف ما جاؤوا به ولذا جاء التوبيخ والاستنكار، فقال ﷻ: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد في مسنده، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها(٤١/ ٤٨١) (٢٥٠٢٩)، الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (١٧/ ٢٥٠) قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٢) إعراب القرآن وبيانه (٨/ ٣٢٧)

(٣) تفسير الزمخشري (٤/ ٧٤)

الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢]

قال القرطبي: قال اللهﷻ: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ يعني النبوة فيضعونها حيث شاءوا ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ﴾ أي أفقرنا قوماً وأغنينا قوماً، فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم فكيف يفوض أمر النبوة إليهم [١].

وقال الرازي: إن مراتب السعادة ثلاثة أعلاها هي النفسانية وأوسطها هي البدنية وأدونها هي الخارجية وهي المال والجاه، فالقوم عكسوا القضية، وظنوا بأخس المراتب أشرافها، فلما وجدوا المال والجاه عند غيره أكثر ظنوا أن غيره أشرف منه، فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد في أفكارهم[٢].

والسبب الخامس للخصومة المترتب على الإعجاب هو إنكار البعث قال اللهﷻ حكاية عن أهل الكفر: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص: ١٦] بعد تذكيرهم بما أصاب الأمم الماضية من العذاب الذي حل بهم لعلهم يرجعوا عن غيهم وضلالهم لكن ما زادهم هذا التذكير إلا عزة وشقاقاً بل ذهب أدراج الرياح، فطلبوا تعجيل نصيبهم من العذاب أو النعيم في الدنيا على سبيل الاستهزاء والإنكار مبالغين في الخصومة.

قال الطبري: إن القوم سألوا ربهم تعجيل صِكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاء بوعيد الله[٣].

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ٨٣)
(٢) تفسير الرازي (٢٦/ ٣٦٩)
(٣) جامع البيان ت شاكر (٢١/ ١٦٥)

وبعد ذكر أسباب خصومة الكفار مع النبي ﷺ، أشرع في ذكر علاجها حسب ما يسر الله لي:

عالج القرآن الكريم تلك الخصومة بعدة أمور منها:

(١) الإنذار: فقد أنذر الله المشركين من أهل مكة بما نزل بالأمم السابقة من عذاب، ولما نزل العذاب بساحتهم آمنوا فما نفعهم إيمانهم فقد مضى زمانه وانتهى أوانه فقال ﷻ: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ ﴾ [ص: ٣] وقال أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾ [ص: ١٢ – ١٤] وكما أنذر أهل مكة بوقوع العذاب على من سبقهم، أنذرهم بوقوع العذاب عليهم مبالغة في الإنذار والتهديد فقال ﷻ: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ ﴾ [ص: ١١].

قال ابن كثير: أي هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين (١).

وقال ﷻ: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥ ﴾ [ص: ١٥] قال الطاهر: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ إشارة إلى كفار قريش،

وقد تتبعت اصطلاح القرآن فوجدته إذا استعمل هؤلاء ولم يكن معه مشار إليه مذكور أنه يريد به المشركين من أهل مكة (٢).

ولما كان المقام مقام خصومة، بدأ بالوعيد والتهديد لعل الإيمان يجد إلى قلوبهم سبيلاً، فذكرهم بما نزل بالأمم قبلهم من عقاب فجعلهم آية لمن خلفهم، وإن لم ينته هؤلاء سيجعلهم آية كسلافهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٧/ ٤٨)

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٢٣)

(٢) الصـــبر: فقد أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بالصـــبر على ما أتوا به من خصـــومة وافتراءات فقال ﷻ: ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [ص: ١٧] فالصـــبر هو طريق الأنبياء والرسـل، ومن صـبر ظفر، ولذا أمر الله نبيه به في هذه الآية وفي غيرها من الآيات، فقال ﷻ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَـبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُـلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ولما كان الصـــبر شـــاقاً على النفس وعد الله أهله الأجر بغير حســـاب فقال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠ ﴾ [الزمر: ١٠]، وبشرهم باستقبال الملائكة لهم بالسلام فقال ﷻ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤ ﴾ [الرعد: ٢٤] ووصف النبي ﷺ الصبر بالضياء لاحتياجه إلى مجاهدة وحبس للنفس فقال: (وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ) [(١)]، حيث إن الضـــياء يجمع بين النور والحرارة قال ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا ﴾ [يونس: ٥]

(٣) التأســي: فقد أمر الله نبيه ﷺ بالتأســي والاقتداء بالأنبياء من قبله على وجه العموم، فهم منارات يستضـيء بها، ومعالم ينتهى إليها ومُثُل يقتدى بهم، اصطفاهم الله من بين خلقه، قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، لا سـيما أبا الأنبياء وإمام الحنفاء وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام فقال ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣ ﴾ [النحل: ١٢٣]، وأمر الله نبيه في هذه السـورة الكريمة بالتأسـي بعدد من الأنبياء ذكر بعضـهم على وجه الإجمال وبعضهم بشيء من التفصيل وممن ذكر قصته بشيء من التفصيل وبدأ بذكره داود وابنه ســـليمان فقال ﷻ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧ ﴾ [ص: ١٧] ولذا سماها البعض بسورة داود عليه السلام.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسـلم في صـحيحه ، كتاب الطهارة، باب فضـل الوضـوء (١/ ٢٠٣) (٢٢٣) .

(٤) التجاهل وعدم الالتفات إلى الأقوال الساقطة التي لا تحتاج إلى دليل للرد عليها وقت الخصومة، فأهل الشرك اتهموا رسول الله بالكذب فلم يهتم القرآن باختلاقهم، فهم يعلمون أن رسول الله صادق وهو مشهور بينهم بذلك وما جربوا عليه كذباً قط، ولذلك قال الله لنبيه ﷺ: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٣]،قال البقاعي: فهم جاحدون لا جاهلون، ومعاندون لا غافلون(١)

ولما قال إبليس في آخر السورة: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦] لم يُرْدْ عليه القرآن فهو صاحب معصية وأحط منزلة فطرد ولعن قال ﷻ: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة ص:٧٧-٧٨].

قال الإمام الشافعي:

إذا نطقَ السفيهُ فلا تجبْهُ	فخيرٌ من إجابتِه السكوتُ
فإن كَلَّمْتهُ فَرَّجْتَ عنه	وإن خليته كمداً يموتُ
فلستُ مجاوباً أبداً سَفيهاً	خزيتُ لمن يجافيه خزيتُ(٢)

(٥) تذكيرهم بأنه ﷻ عنده خزائن كل شيء وَمَنْ عِنْده خزائن كل شيء يعطي من يشاء حسب مشيئته، بل إن ملك السموات والأرض من خزائن رحمته فقال ﷻ: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ [ص: ٩، ١٠] لذا قال ﷻ منكراً عليهم زعمهم: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: ٣٢] إذ كيف يعطي من لا يملك لمن لا يستحق لا سيما أمر النبوة.

فلو أدرك أهل الشرك هذه المعاني لأنهوا الخصومة التي بينهم وبين سيد الخلق ﷺ ولكنه الكبر والعناد والحسد....

وبعد الانتهاء من الفصل الأول أنتقل إلى الفصل الثاني وعنوانه: **اختصام الخصمين عند داود عليه السلام**

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦/ ٣٢٧)

(٢) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٥/ ٥٩)

الفصل الثاني: اختصام الخصمين عند داود عليه السلام

قال ﷻ: ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ۝٢٠ * وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ۝٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ۝٢٣ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩ ۝٢٤ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٢٥ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢٦ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ۝٢٨ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٢٩ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ۝٣٣ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٠ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٤٣ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝٤٤ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٨ هَٰذَا ذِكۡرٞۗ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ

لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ [سورة ص:١٧-٥٤].

بين يدي قصص الأنبياء الذين ورد ذكرهم في السورة الكريمة:

ورد في السورة الكريمة ذكر عدد من قصص الأنبياء، وقصص الأنبياء على وجه الخصوص وقصص القرآن على وجه العموم له مميزات يمتاز بها عن غيره منها:

أولا: أن القصص في القرآن يعمل على غرس الأخلاق الطيبة والخلال الحسنة و القيم الحميدة في النفوس والتنفير من الأخلاق السيئة والخلال القبيحة والقيم المشينة كل ذلك في ثوب تربوي قشيب يأخذ بالألباب، فقصة داود عليه السلام في هذه السورة أعني سورة (ص) وجهت القلوب والأبصار إلى تنزيه الله وتسبيحه بمشهد يعلوه البهجة والسرور، وذلك بذكر تسبيح الجبال الرواسي والطير المختلفة الأنواع والأشكال المصفوفة في جو السماء مع داود عليه السلام، وذكرت ما عليه داود وسليمان- عليهما السلام- من كثرة الرجوع إلى الله عز وجل،ونفرت النفوس من البغي -لا سيما بين الشركاء- واتباع الهوى في الحكم بين الناس.

ثانياً: أن القصص القرآني يهمل عن قصد في حالات كثيرة، الناحية الزمانية، والمكانية، وأحيانًا أسماء الأشخاص وذلك لأن الهدف الأهم من سوق القصة أخذ العبرة(١)، وأحياناً يذكر الشيء على سبيل العموم نجد ذلك واضحاً جلياً في قصة داود وسليمان فلم يذكر القرآن اسما الرجلين اللذين وقعت بينهما الخصومة أمام نبي الله داود عليه السلام، ولم يذكر القرآن نوع الذكر الذي شغل عنه سليمان عليه السلام حتى توارت الشمس بالحجاب، هل هو الذكر المطلق أم صلاة العصر؟ و لم يفصح

(١) مباحث في التفسير الموضوعي (ص: ٢٠٢) بتصرف

القرآن عن نوع المرض الذى ابتلى به أيوب عليه السلام، وفتنة داود إذ الهدف سوق العبرة والعظة.

ثالثاً: القصص القرآني كلها حقائق وقعت أحداثها، ولئن عجز الجهد البشري عن إدراك تفصيلات هذه الوقائع، وتحديد زمانها ومكانها أو أشخاصها بوسائله القاصرة من كتابات وآثار فليس ذلك حجة لمن يزعم أنها قصص تمثيلي أو تخييلي[1]، وأنى له ذلك وهو من لدن عليم خبير.

مناسبة الفصل الثاني للأول:

في قوله ﷻ: ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ [ص: ١٧] أمر بالصبر وهذا غير مقتصر على داود عليه السلام فقط بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الأنبياء فكأنه قال: اصبر على ما يقولون واعتبر بحال سائر الأنبياء ليعلمه أن كل واحد منهم كان مشغولا بهمّ خاص وحزن خاص، فحينئذ يعلم أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والأحزان، وأن استحقاق الدرجات العالية عند الله لا يحصل إلا بتحمل المشاق والمتاعب في الدنيا [2]، وذكر تسعة من الأنبياء –عليهم السلام– ثلاثة على وجه التفصيل وهم داود وسليمان وأيوب وبقيتهم على وجه الإجمال في لمحة خاطفة.

سر البدء بقصة داود عليه السلام:

ابتدئ بذكر داود لأن الله أعطاه ملكاً وسلطاناً لم يكن لآبائه ففي ذكره إيماء إلى أن شأن محمد ﷺ سيصير إلى العزة والسلطان، ولم يكن له سلف ولا جند فقد كان حال النبيء ﷺ أشبه بحال داود عليه السلام [3].

(١) مباحث في التفسير الموضوعي (ص: ٢٠٢).
(٢) تفسير الرازي (٢٦/ ٣٧٣)
(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٢٦)

وفي هذا إشارة إلى النبي ﷺ بأنا متى شئنا جعلنا قومك معك في التسخير هكذا، فلا تيأس منهم على شدة نفرتهم وقوة سماجتهم وغرتهم، فمتى شئنا جعلناهم لك مثل ما جعلنا الجبال والطير مع داود عليه السلام، بل أمرهم أيسر وشأنهم أهون(١).

ولعل القرآن بدأ بقصة داود عليه السلام دون غيرة من الأنبياء لوقوع الخصومة بين يديه من قبل الخصمين اللذين تسورا المحراب وفيها من العبر والعظات ما يستضيء بها رسول الله ﷺ في خصومة مشركي مكة له، وإن كان جميع القصص لا يخلو من مواضع عبرة وعظة وأسوة قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١] ولعل ذلك لعدم ذكرهما في الصافات.

السر في الإطناب في قصة داود عليه السلام:

إن السر في ذلك بلوغ الخصام بين أهل الشرك والنبي ﷺ إلى درجة الاستهزاء والسخرية حيث حكى الله عز وجل عن أهل الشرك قولهم: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص: ١٦] فلما بلغ الخصام إلى هذه الدرجة اتبع القرآن المنهج القصصي في إيصال المطلوب بطريقة تربوية قصصية.

قال الرازي: إن العقلاء قالوا من ابلى بخصم جاهل مصر متعصب، ورآه قد خاض في ذلك التعصب والإصرار، وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة، لأنه كلما كان خوضه في تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشد، فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة، وأن يخوض في كلام آخر أجنبي عن المسألة الأولى بالكلية ويطنب في ذلك الكلام الأجنبي، بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى(٢).

موضع القدوة والأسوة في قصص الأنبياء في السورة الكريمة:

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦/ ٣٥٤) بتصرف.
(٢) تفسير الرازي (٢٦/ ٣٨٨)

أبدأ بذكر بعض مواطن العبرة والعظة في قصـــص الأنبياء الذين ورد ذكرهم في السورة الكريمة، وأخلص من ذلك إلى الغرض الأساسي لهذا الفصل وهو الخصومة بين يدي داود عليه عليه السلام:

أولاً: أن داود عليه السلام أعطاه الله القوة في العبادة، بل جمع الله له ما لم يجمع لغيره من الملك والعلم والنبوة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوما، ويفطر يوما»[(١)]، ومما يذكر في عبادة داود قراءته الزبور في وقت قصـــير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺقال: «خفف على داود القراءة، فكان يأمر بدابته لتســرج، فكان يقرأ قبل أن يفرغ – يعني – القرآن[(٢)]»[(٣)].

ولم يكن هذا شأن داود فقط بل كان كذلك سليمان كان ذا قوة في العبادة فقد حزن على فوات وقت الذكر، فأمر برد الخيل يمسح سوقها وأعناقها قال عز وجل: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣ ﴾ [ص: ٣٣] وكان يستطيع أن يقضي ما فات وقته وانتهى زمانه لكنه الحرص على الطاعة، وأيوب كان ذا قوة في العبادة حيث وصفه القرآن بالعبودية في أول القصة فقال: عز وجل ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ وفي نهايتها قال عز وجل: ﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾، وكما صـــرح القرآن بقوة داود في العبادة جعل ذلك واضحاً جلياً مع بقيه الأنبياء فقال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ ﴾ [ص: ٤٥] قال النحاس: أما الأبصـــار فمتفق على أنها البصـــائر في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التهجد، باب من نام عند السحر (٢/ ٥٠)(١١٣١).
(٢) المراد بـ(القرآن)مصدر القراءة لا القرآن المعهود لهذه الأمة. فتح الباري لابن حجر (٨/ ٣٩٧)
(٣) أخرجه البخاري في صـــحيحه، باب قوله: ﴿وآتينا داود زبورا﴾، كتاب تفســـير القرآن (٦/ ٨٥) (٤٧١٣).

الدين والعلم، وأما الأيدي فمختلف في تأويلها فأهل التفسير يقولون: إنها القوة في الدين[1].وعطف على هؤلاء فقال ﷻ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨ ﴾ [ص: ٤٨].

ثانياً: اجتمع داود وسليمان وأيوب في وصف واحد فوصفهم ربنا بأنهم أهل أوبة ورجوع إليه ﷻ، ومنهم من ابتلي بالسراء كسليمان، ومنهم من ابتلي بالضراء كأيوب، قال ﷻ: ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ولقد أثنى الله عليها ثناء واحدا فقال ﷻ: ﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾، قال الطاهر: كان سليمان أواباً لله من فتنة الغنى والنعيم، وأيوب أواباً لله من فتنة الضر والاحتياج، وكان الثناء عليهما متماثلا لاستوائهما في الأوبة وإن اختلفت الدواعي. قال سفيان: أثنى الله على عبدين ابتليا: أحدهما صابر، والآخر شاكر، ثناء واحدا، فقال لأيوب ولسليمان ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [2].

ثالثاً: أن جميع من ذُكر من الأنبياء أسوة في الصبر على البلاء قال ﷻ في شأن داود: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ [ص: ٢٤] وقال في شأن سليمان ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ ﴾ [ص: ٣٤] وقال في حال أيوب: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١ ﴾ [ص: ٤١]،وذكر الله ﷻ إبراهيم وإسحاق ويعقوب في آية واحدة فقال: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ ﴾ [ص: ٤٥] قال الطاهر: ذكر هؤلاء الثلاثة ذكر اقتداء وائتساء بهم، وأما ذكر إسحاق ويعقوب فاستطراد بمناسبة ذكر إبراهيم ولما اشتركا به من الفضائل مع أبيهم التي يجمعها

(١) إعراب القرآن للنحاس (٣/ ٣١٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٧٥)

اشتراكهم في معنى قوله: أولي الأيدي والأبصار ليقتدي ﷺ بثلاثتهم في القوة في إقامة الدين والبصيرة في حقائق الأمور(١).

وذكر ربنا إسماعيل واليسع وذا الكفل في آية واحدة فقال ﷻ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨ ﴾ [ص: ٤٨] بدأ بإسماعيل ولم يذكره مع أبيه لبيان قدره وعلو شأنه، قال صاحب الوسيط: إشارة إلى عراقته في الصبر وفي تحمل الشدائد(٢).

إن الله قد أمر سيد الخلق ﷺ أن يقتدي بهؤلاء في قوة العبادة وحسن الأوبة والرجوع إلى الله والصبر على البلاء، وهذا تشريف لهم جميعاً إذ يأمر الله سيد الخلق أن يقتدي بهم في مكارم الأخلاق، والإنسان إذا أمر أن يقتدي بغيره قد يساويه أو يسبقه أو يظل في مكانه، وقد سبقهم ﷺ في مكارم الأخلاق، وأما ما جاء عنه من تفضيله للأنبياء من قبله مثل ما روي عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ، قال: " نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ويرحم الله لوطا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف، لأجبت الداعي "(٣)، ومثل ما روي عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺقال: " ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى "(٤).

هذه الأحاديث وغيرها من باب التواضع وهضم الإنسان حق نفسه، وأن التفاضل بين الأنبياء لا يكون على سبيل المباهاة والفخر والتقليل من شأن أحدهم.

---

(١) المرجع السابق (٢٣/ ٢٧٦) بتصرف.

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي (١٢/ ١٧١)

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء ،باب قوله: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه﴾ (٤/ ١٤٧)(٣٣٧٢)

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ويونس، ولوطا وكلا فضلنا على العالمين﴾ (٦/ ٥٧)(٤٦٣١)

قال صاحب منحة الباري: ذلك كان تواضعًا أو قاله: قبل أن يعلم بأنه سيد ولد آدم ولأن المنع إنما هو في ذات النبوة والرسالة فإن الأنبياء فيها على حد واحد إذ هي شيء واحد لا يتفاضل، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال، والكرامات والرتب والألطاف(١).

ومما ينبغي الإشارة إليه ما ذهب إلية الطاهر بن عاشور من أن قصة سليمان كالتكملة لقصة داود ولم تكن قصته مثالاً لحال محمد ﷺ فقال: كانت قصة سليمان كالتكملة لقصة داود، ولم يكن لحال سليمان عليه السلام شبه بحال محمد ﷺ، فلذلك جزمنا بأن لم يكن ذكر قصته هنا مثالا لحال محمد ﷺ وبأنها إتمام لما أنعم الله به على داود إذ أعطاه سليمان ابنا بهجة له في حياته وورث ملكه بعد مماته، غير أنها لم تخل من مواضع أسوة وعبرة وتحذير على عادة القرآن من افتراض الإرشاد (٢).

قلت: نسب الله إلى سليمان هذه الأمور العجيبة، وَأَمْر الله نبيه ﷺ بالتأسي به والنظر في أحواله فيه إشارة إلى رسول الله بإعداد العدة والتأهب لقرب الإذن بالجهاد.

وبعد ذكر طرفاً من مواطن العبرة والعظة من قصص الأنبياء الذين ورد ذكرهم في السورة الكريمة لتكون نبراساً يستضيئ به ومنارات يهتدى بها نبينا ﷺ وكل من يصلح له الخطاب، أشرع في بيان أسباب الخصومة التي حدثت في محراب داود عليه السلام.

بعد أن ذكر القرآن جملة من المعجزات التي وهبها الله لداود من تسبيح الجبال معه والطير، وإعطائه النبوة والعلم، أنتقل إلى شيء عجيب آخر من أمره يشهد بهذا العطاء، ألا هو نبأ الخصم اللذين تسورا المحراب في وقت عبادته، قال: ﷻ ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: ٢١] إن هؤلاء الخصم لما دخلوا

(١) منحة الباري بشرح صحيح البخاري (٦/ ٤١٥) وينظر: فتح الباري لابن حجر (٦/ ٤٥٢)
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٥٣) بتصرف

على داود خاف منهم وانقبض قلبه بمقتضى بشريته، وهذا أمر لا يقدح في نبوته فهو من المصطفين الأخيار، قال ﷻ: ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ [ص: ٢٢] وذكر القرآن ذلك مع موسى وهارون –عليهما السلام– لما خافا من بطش فرعون، طمئنهم ربنا ﷻ بقوله: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٦].

ذكر الشوكاني سبب فزع داود من الخصمين فقال: إنهما أتياه ليلا في غير وقت دخول الخصوم، ودخلوا عليه بغير إذنه، ولم يدخلوا من الباب الذي يدخل منه الناس(١)، وقال ابن العربي: إن محراب داود كان من الامتناع بالارتفاع بحيث لا يرقى إليه آدمي بحيلة، ولأن الله لم يضمن له العصمة، ولا أمن من القتل والإذاية منهما (٢).

فلما وجد الخصمان الفزع من داود أسكبا الطمأنينة في قلبه، والسكينة في نفسه فقالا: ﴿لَا تَخَفۡ﴾ [ص: ٢٢] ثم أخبراه بما أتيا من أجله فقالا: ﴿ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ص: ٢٢] فذكرا الخصومة التي بينهما على سبيل الإجمال وأوصياه بعد الميل والجور واتباع سبيل الحق في حكمه.

إن سبب الخصومة التي أتيا من أجلها هي البغي: وهو طلب الاستعلاء بغير حق(٣)، والبغي على ضربين: أحدهما محمود: وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع، والثاني مذموم: وهو تجاوز الحق إلى الباطل، أو تجاوزه إلى

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٤٨٨)
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٤/ ٤٧) بتصرف.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٨١)

الشُّـــبَـه؛ كمـا قـال النبي ﷺ: "إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينهمـا أمور مشتبهات[1][2].

والمراد بالبغي في الآيات النوع الثاني وهو طلب الاسـتعلاء بغير وجه حق، وبعد ذكر الخصـومة على وجه الإجمال ذكراها على وجه التفصـيل فقال ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص: ٢٣] فبين المظلوم أن الباغي عليه هو أخوه لكن الأخوة لها اعتبارات متعددة ومناحي شـتى منها إخوة الدين وأخوة النسـب وأخوة الرضـاعة وأخوة الوطن وأخوة العمل، لذا اختلف المفســرون فيها على وجهين قال الطبري: أحدهما: يعني على ديني، الثاني: يعني صاحبي [3] ولعل المظلوم ذكر الأخوة هنا لبيان مرارة الألم وشدة الحسرة التي أصابته إذ أتى البغي من أخيه والأخوة موطن عفة وليست بموطن بغي لذا قال طرفة بن العبد: وظُلْمُ ذَوِى القُرْبى أَشَدُّ مَضَاضة... عَلَى المرءِ من وقع الحُسام المُهَنّدِ[4].

وذكر المظلوم أن سـبب البغي إرادة الظالم ضـم نعجته إلى نعاجه لتكتمل نعاجه مائة، وجعل يجادل المظلوم في ذلك حتى غلبه في الخطاب، قال صـاحب الوسـيط: النعجة: الأنثى من الضـأن. وتطلق على أنثى البقر، وقوله: ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أي: ملكني إيـاهـا، وقولـه: ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص: ٢٣] أي: غلبني في المحـاجـة والمخاطبة لأنه أفصح وأقوى مني[5].

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في صـحيحه، كتاب الإيمان، باب فضـل من اسـتبرأ لدينه (١/ ٢٠) (٥٢).

(٢) بصائر ذوي التمييز (٢/ ٢٦٢)

(٣) تفسير الطبري (٢١/ ١٨٦) النكت والعيون (٥/ ٨٧)

(٤) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (ص: ٢٠٩)

(٥) التفسير الوسيط لطنطاوي (١٢/ ١٤٦)

فما كان من داود إلا أنه جهر بالحق في قضية واضحة المعالم بينة الأركان، قال ﷻ: ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ ﴾ [ص: ٢٤] فالبغي نتاج لأخلاق مذمومة ذكرتها السنة النبوية فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول ﷺ" سيصيب أمتي داء الأمم "، قالوا: يا رسول الله وما داء الأمم؟ قال: " الأشر والبطر والتكاثر والتناجش في الدنيا(١)، والتباغض والتحاسد , حتى يكون البغي " (٢)

وقفة مع فتنة داود عليه السلام:

ولما أيقن داود أن دخول الخصم عليه بهذه الطريقة اختبار وابتلاء له لأنه دخل المحراب وأغلق الباب ولم يسمح بدخول الناس إليه للتحاكم في هذا الوقت، أو ظن أنهم يقعون به سوء بعد تسورهما المحراب فهذه كانت فتنة لداود، فلما تبين له خطؤه وتأكد له عدم تحققه، استغفر ربه فغفر له وله مع ذلك منزلة عالية ودرجة رفيعة عند ربه قال ﷻ: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٤، ٢٥]

قال أبو حيان: الذي يُذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل، وفي غير وقت جلوسه للحكم،

---

(١) التناجش: وهو أن يزيد في السلعة ولا رغبة له في شرائها بل ليغر غيره في شرائها. شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٢٠)

(٢) المستدرك على الصحيحين ، كتاب البر والصلة، (٤/ ١٨٥)(٧٣١١) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " قال الذهبي: صحيح.

وأنه فزع منهم ظانا أنهم يغتالونه، إذ كان منفردا في محرابه لعبادة ربه، فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة، فلم يقع ما كان ظنه، فاستغفر من ذلك الظن، حيث أُخْلِفَ ولم يكن يقع مظنونه(١)

وقال ابن حزم: قد ظن داود عليه السلام أن يكون ما أتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة(٢)

الخصومة بين يدي داود على الحقيقة ولا علاقة لها بفتنته:

إن إجراء الأمر على الحقيقة في قضية الخصم والنِّعاج هو ما تستريح إليه النفس ويطمئن إليه القلب، و رجحه كثير من العلماء منهم الرازي وابن حزم وأبو حيان والبقاعي وابن كثير وغيرهم.

قال الرازي: حاصل كلامهم: أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها، ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبا، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة(٣).

ثم قال الرازي مبيناً حكمه على هذا: الذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل، وأن هذه الحكاية لو نُسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجورا لاستنكف منها، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه(٤).

وقال أبو حيان: ما حكى الله تعالى في كتابه يمر على ما أراده تعالى، وما حكى القصاص مما فيه غض عن منصب النبوة طرحناه(٥).

---

(١) البحر المحيط في التفسير (٩/ ١٥١) بتصرف.
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٥)
(٣) تفسير الرازي (٢٦/ ٣٧٧)بتصرف
(٤) المرجع السابق(٢٦/ ٣٧٧)
(٥) البحر المحيط في التفسير (٩/ ١٥٠)

وقال ابن حزم: من قال أنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء فقد كذب على الله عز وجل وقوله ما لم يقل وزاد في القرآن ما ليس فيه وكذَّب الله عز وجل[١]

وقال البقاعي: هذه القصة مقصورة على الفتنة لا تعلق لها بالخصومة، ولو كان المراد ما قيل من قصة المرأة التي على كل مسلم تنزيهه وسائر إخوانه عليهم السلام عن مثلها لقيل «وعلم داود» ولم يقل: وظن – وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود، كما يشهد بذلك كل من له أدنى ذوق في المحاورات وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام لأن عيسى عليه السلام من ذريته ليجدوا السبيل إلى الطعن فيه [٢].

وقال ابن كثير: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه[٣].

إن مقام النبوة مقام عظيم، لا ينبغي بحال من الأحوال أن ينسب إلية ما لا يليق به، قال ابن حزم: من البرهان على أنه لم يكن البتة أن يعصي نبي، قوله ﷺ (ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين)[٤] فنفي رسول الله عن جميع الأنبياء أن تكون لهم خائنة الأعين وهو أخف ما يكون من الذنوب ومن خلاف الباطن للظاهر فدخل في هذا جميع المعاصي صغيرها أو كبيرها سرها وجهرها[٥].

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٤)
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦/ ٣٦٢)
(٣) تفسير ابن كثير ط العلمية (٧/ ٥١)
(٤) جزء من حديث أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد ،باب قتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام (٤/ ٣١٨) (٢٦٨٣) الأرنؤوط: إسناده حسن
(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ٢٢)

وصية الله ﷻ لداود عليه السلام:

وبعد أن أنهى القرآن الكلام عن الخصومة والفتنة، أوصى الله داود بالحكم بين الناس بالحق وعدم اتباع الهوى، فمن حكم بغير الحق واتبع هواه فقد تنكب الصراط المستقيم وبعد عن جادة الصواب، واستحق العذاب الشديد بضلاله، فقال ﷻ: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ فيه قولان: أحدهما: بما تركوا العمل ليوم الحساب، قاله السدي. قال الزجاج: لما تركوا العمل لذلك اليوم، صاروا بمنزلة الناسين، والثاني: أن في الكلام تقديما وتأخيرا، تقديره: لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا، أي: تركوا القضاء بالعدل، وهو قول عكرمة(١).

وبعد ذكر ما مضى يتبين ما يأتي:

أولاً: أن الخصومة التي كانت بين يدي داود على وجه الحقيقة وقعت بين خصمين من البشر لا بين ملكين، ومن المعلوم أن حمل الكلام على الحقيقة أولى من حمله على المجاز ولا حاجة في الآية للحمل على المجاز.

ثانياً: أن الفتنة في قوله ﷻ: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ لا تعلق لها بالخصومة إذ ليس داود مدعياً عليه أيّما كان الذنب سواء أوقع أم لم يقع، وهذا هو الذي يليق بمقام النبوة.

علاج القرآن الكريم لتلك الخصومة (حكم داود في الواقعة) بما يأتي:

أولاً: إن داود جهر بالحق وصدع به بعيداً عن التورية و التعمية بعبارة قطعية الدلالة على الظلم، قال ﷻ: ﴿ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ ﴾ [ص: ٢٤]

(١) زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٥٦٩)

وما جهر داود بالحكم إلا بعد أن تبين له وجه الحق في القضـــية المطروحة وإقرار المدعى عليه بما قاله المدعي، وأما القول بأن الحكم جاء قبل أن يســمع المدعي عليه فهو قول مردود يأباه الشرع والعرف والعقل.

قال ابن العربي: ذلك مما لا يجوز عند أحد ولا في ملة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشـر؛ وإنما تقدير الكلام أن أحد الخصـمين ادعى، والآخر سـلم في الدعوى، فوقعت بعد ذلك الفتوى، وقد قال النبي ﷺ لعلي ﷺ: إذا جلس إليك الخصـــمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر»[1] وقيل: إن داود لم يقض للآخر حتى اعترف صاحبه بذلك. وقيل: تقديره لقد ظلمك إن كان كذلك، والله أعلم بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه[2].

ثانياً: إن داود خفف عن نفس المكلوم وهون عليه وتلطف به في العبارة بعد بيان وجه الحق في الخصـــومة، فقال ﷻ: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [ص: ٢٤] فالمصيبة إذا عمت هانت على النفس فيتسلى الناس بعضهم ببعض، قالت الخنساء:

فلولا كثرة الباكين حولي... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يُبكون مثل أخي ولكن... أعزي النفس عنه بالتأسي[3].

ثالثاً: بيان داود يوحي بأن الظلم من شـيم النفوس طبعت عليه ولذا وصـف أكثر الشـــركاء بالبغي، قال ﷻ: في وصـــف الإنســـان ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة ،ومن مسند علي بن أبي طالب ﷺ (١/ ٥٤٤)(٨٨٢) قال أحمد شـــاكر: إســـناده صـــحيح. وأخرجه الحاكم في المســـتدرك ،(٤/ ١٠٥)(٧٠٢٥) قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» قال الذهبي :صحيح.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٤/ ٥٥)
(٣) الكامل في اللغة والأدب (١/ ١٦)

[الأحزاب: ٧٢] وقال المتنبي: والظلم من شـــيم النفوس فإن تجد... ذا عفة فلعلة لا يظلم(١).

قال صاحب روح البيان: قال يوسف (وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي) فالنفوس جبلت على الظلم والبغي وســـائر الصـــفات الذميمة ولو كانت نفوس الأنبياء عليهم الســـلام كذا فى التأويلات النجمية، يقول الفقير هذا بالنســـبة إلى أصـــل النفوس وحقيقتها وإلا فنفوس الأنبياء مطمئنة لا أمارة إذ لم يظهر فيهم إلا آثار المطمئنة وهى أول مراتب سلوكهم(٢).

رابعاً: إن داود حكم بقلة المؤمنين الذين يجمعون بين الإيمان والعمل، الذين يعدلون ولا يبغون، قال ﷻ: ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤] وهذه حقيقة ذكرها القرآن.

قال الرازي: اعلم أن الحكم بقلة أهل الخير كثير في القرآن، قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ: ١٣] وقال داود في هذا الموضع ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾[ص: ٢٤] وحكى تعالى عن إبليس أنه قال: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧] وسبب القلة أن الدواعي إلى الدنيا كثيرة (٣)،وكلها حكم وحقائق تنطبق على السواد الأعظم من الناس.

خامساً: أن التثبت والبينة والإقرار من علامات صحة القضاء.

ســـادســـاً: أن داود لم يمنعه التعدي عليه من قول الحق وإقرار العدل، فإن الخصـمين تسـورا المحراب، فدخلوا عليه من غير إذن ووجهوا إليه نصـحاً بعدم الميل عن الحق، وهذا لا يليق بمنصب القضاء فضلاً عن أن يكون القاضي هو داود الذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وكل هذا ما منعه من الصدع بالحق معرضاً عن جهالتهم.

---

(١) شرح ديوان المتنبي للعكبري (١/ ١٦٦)
(٢) روح البيان (٨/ ١٧)
(٣) تفسير الرازي (٢٦/ ٣٨٤)

سابعاً: أدب داود وعلو منزلته وحسن خلقه حيث لم ينتصر لنفسه مما قام به الخصم، فلم يأمر بإخراجهما أو تعزيرهما، ولعل داود عذرهما لكونهما أصحاب حاجة، والعرب تقول: صاحب الحاجة أبله، لا يرى الرشد إلا في قضائها[1]، فصاحب الحاجة لا يبصر عذر من يسألها منه، فما يشغله إلا قضاء حاجته.

قال صاحب العقد الفريد: قيل لأبي عقيل البليغ العراقي: كيف رأيت مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟ قال: رأيت رغبته في الإنعام فوق رغبته في الشكر، وحاجته إلى قضاء الحاجة أشدّ من حاجة صاحب الحاجة[2]، فما الحال بداود عليه السلام.

ثامناً: ذكاء داود وحسن فطنته فالباغي لم يستطع أن يغلبه في الاحتجاج، فقد كان قوي الحجة في بغيه حتى قال صاحبه في شأنه: ﴿ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣ ﴾ [ص: ٢٣]، وهذا أمر حذر منه سيد الخلق ﷺ: فعن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ، قال: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا، فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار»[3]

تاسعاً: إن البغي والعدوان لا يهدم ما بين الناس من وشائج الأرحام وأواصر المحبة وعلاقات طيبة حيث قال المدعي: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي ﴾ [ص: ٢٣] فلم ينف في شكواه الأخوة، والأخوة هنا أخوة الدين[4]، وفي موطن آخر يتعلق بالبغي وصف القرآن أهل البغي بالإيمان والأخوة فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠ ﴾ [الحجرات: ١٠] وفي موطن القتل قال عز وجل: ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ

(١) التمثيل والمحاضرة (ص: ٤٦٦)
(٢) العقد الفريد (١/ ١٩٢)
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم (٩/ ٦٩)(٧١٦٨)
(٤) تفسير الزمخشري (٤/ ٨٣)، تفسير البيضاوي (٥/ ٢٧)

مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة: ١٧٨] وهذا من هدايات القرآن حتى لا يفجر أهل الإيمان في الخصـــومة، فالفجور في الخصـــومة من النفاق العملي الذي حذر منه رسول الله ﷺ.

عاشـــراً: جواز الجهر بالســـوء من القول للمظلوم ليثبت حقه وينفث عن نفســـه وليتبين الأمر للقاضـــي على أكمل وجه وأتمه قال ﷻ: ﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [ص: ٢٢] وهذا أمر مشروع قال ﷻ: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء: ١٤٨]، ولقد سمع رسول ﷺ من هند زوجة أبي سفيان شكواها في زوجها حين وصفته بالشح، فعن عائشة، أن هند بنت عتبة، قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي، إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: «خذي ما يكفيك وولدك، بالمعروف»(١)

حادي عشـــر: وصـــية الله داود بالعدل بين الناس والنهي عن اتباع الهوى تذكيراً وتثبيتاً، وليس في هذا دلاله على خطأ داود كما ذهب الشـــوكاني حيث قال: فيه تنبيه لداود عليه السلام أن الذي عوتب عليه ليس بعدل وأن فيه شائبة من اتباع هوى النفس(٢).

ما ذهب إليه الإمام الشوكاني لا يتناسب مع مقام النبوة، بل يرده ما ذكره الله في شأن داود فقد آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، ومن آتاه الله مثل هذا فهو جدير بالحكم بين الناس بالعدل وقادر على كبح جماح النفس.

قال أبو حيان حاملاً الأمر بالعدل على ما يعظم مقام النبوة قوله: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ أمر بالديمومة، وتنبيه لغيره ممن ولي أمور الناس (٣).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف (٧/ ٦٦)(٥٣٦٤)

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٤٩٣)

(٣) البحر المحيط في التفسير (٩/ ١٥٢)

والأمر بالديمومة على الشـــيء ورد في كتاب الله كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النســـاء: ١٣٦] أي داوموا على إيمانكم، إذ الأمر بالعدل لا يقتضي وقوع داود في شائبة من اتباع الهوى.

وقد يكون هذا خطاب لكل من يأتي بعد داود في شـخص داود كخطاب الله لنبيه ﷺ بقولـه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ ﴾ [الأحزاب: ١] فهذا خطاب للأمة في شخص رسول ﷺ فرسول الله ﷺ أتقي الناس ومع ذلك أوصـــاه الله ﷻ بالتقوى وفي الحديث: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»(١).

أخيراً: إن الخصـــومة بين الخصـــمين ســـببها البغي وهذه بعض ســـبل علاجها والوقاية منها- نعوذ بالله من البغي والعدوان-.

وبعد الانتهاء من الفصـل الثاني أنتقل إلى الفصـل الثالث وعنوانه: خصـومة أهل النار (تخاصم أهل النار).

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في صـــحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله». (١/ ١٣) (٢٠).

الفصل الثالث: خصومة أهل النار (تخاصم أهل النار)

قال ﷻ: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة ص:٥٥-٦٤].

مناسبة الفصل الثالث للثاني:

لما ذكر ربنا ﷻ حال الأتقياء السعداء ومآلهم وما أعده لهم من النعيم، أتبع ذلك بحال الطغاة الأشقياء ومآلهم وما أعده لهم من الجحيم، كما هو معهود القرآن في ذكر الوعد والوعيد والبشارة والنذارة والترغيب والترهيب متآخيين.

خصومة أهل النار على وجه العموم:

أولاً: إن ذكر الخصومة بين أهل النار وجه من وجوه إعجاز القرآن، إذ هي لم تقع بعد ولكن وقوعها محتم لازم وذلك مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [ص: ٦٤] فهي من قبيل الإخبار بالغيب.

ثانياً: إن الخصومة بين أهل النار وتبرأ بعضهم من بعض ولعن بعضهم بعضاً أخذت صوراً متعددة ومشاهد مختلفة تبعاً لحال كل جماعة جمعهم نوع من الضلال والإغواء كان سبباً في دخولهم النار، وكذلك تبرأ أهل الإيمان ممن عبدوهم من دون الله وجعلوهم آلهة كالملائكة والمسيح عليه السلام.

وورد في كتاب الله تبرأ أهل النار بعضهم من بعض على وجه العموم تارة وعلى وجه الخصوص:

فمما ورد على وجه العموم قوله ﷻ: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٦] هذا تبرأ على وجه

العموم من الأنداد والنظراء والأمثال سواء أكانوا من سادتهم وكبرائهم أو الأصنام أو الشمس والقمر أو غير ذلك.

ومما ورد على وجه الخصوص تبرأ الشيطان من الذين انقادوا له وسلموا إليه أنفسهم واتبعوا خطواته قال ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ومنه تبرأ الظالمين بعضهم من بعض قال ﷻ: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ ﴾ [سبأ: ٣١].

ومن صور تبرأ أهل الإيمان ممن عبدوهم وجعلوهم آلهة من دون الله، ما كان من الملائكة قال ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، ومنه تبرأ المسيح ممن عبدوه وأمه من دون الله قال ﷻ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ ﴾ [المائدة: ١١٦]

أسباب الخصومة بين أهل النار في سورة (ص):

هذه الخصومة الواردة في تلك السورة الكريمة بين أهل النار فيها دلالة واضحة على الخصومة لنص الآيات عليها قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤ ﴾ [ص: ٦٤] لذا فهي أشد وضوحاً من غيرها في الدلالة على الخصومة، وعلل المفسرون تسمية تقاولهم وتفاوضهم بالتخاصم، فقال الزمخشري: إن قول الرؤساء: لا مرحبا بهم،

وقول أتباعهم: بل أنتم لا مرحبا بكم، من باب الخصومة، فسمى التقاول كله تخاصما لأجل اشتماله على ذلك(١).

ولقد بدأت الخصومة بين أهل النار في هذه السورة الكريمة بإخبار خزنة النار من الملائكة أئمة الكفر أو المتبوعين أن هناك فوج ممن اتبعوكم مقتحم معكم النار، فيقول المتبوعون لا مرحباً بهم، وهذا هو الراجح بخلاف من قال هذا من تمام قول الخزنة(٢) قال ﷻ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ [ص: ٥٩]، وجملة ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ﴾ من باب الدعاء عليهم، قال النابغة الذبياني: لا مرحباً بغد ولا أهلاً به... إن كان تفريق الأحبة فى غد(٣)، وقال السمعاني: قوله: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ﴾ الرحب هو السعة، وقول القائل: لا مرحبا بفلان أي: لا رحبت أي: لا اتسعت عليه(٤).

وهذه تحية مشهورة عند العرب، وحيَّا بها رسول ﷺ أم هانئ يوم الفتح، فعن أم هانئ بنت أبي طالب تقول: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره بثوب، قالت: فسلمت، فقال: «من هذه؟» قلت: أم هانئ بنت أبي طالب، قال: «مرحبا بأم هانئ»(٥)، وحيَّا بها ابنته فاطمة فعن عائشة قالت: كن أزواج النبي ﷺ عنده، لم يغادر منهن واحدة، فأقبلت فاطمة تمشي، ما تخطئ مشيتها من

(١) تفسير الزمخشري (٤/ ١٠٣)
(٢) قيل: إنها من تمام قول الخزنة. والأول أولى يعني من قول المتبوعين. فتح القدير (٤/ ٥٠٧)، محاسن التأويل (٨/ ٢٧١)
(٣) الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ٤٤٦)
(٤) تفسير السمعاني (٤/ ٤٥٠)
(٥) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى (١/ ٤٩٨) (٣٣٦)

مشية رسول الله ﷺشيئا، فلما رآها رحب بها، فقال: «مرحبا بابنتي»[1]، وحيَّا بها وفد عبد القيس عند القدوم عليه ﷺ، وحيَّا بها الأنبياء رسولنا ﷺ في رحلة المعراج والشواهد على ذلك كثيرة في السنة النبوية.

إن المتأمل في حال أهل النار يجد تحيتهم من جنس عملهم فتحيتهم التلاعن والدعاء على بعضهم البعض بزيادة العذاب قال ﷻ: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف: ٣٨] وقال ﷻ: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧- ٦٨]، وأما تحية أهل الجنة السلام قال: ﷻ ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ [يونس: ١٠] والملائكة تحيهم بالسلام قال ﷻ: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤].

وهذا نوع من العذاب المعنوي لتشد حسرتهم وندامتهم يوم القيامة قال الطاهر: ليزدادوا مقتاً بأن يضاف إلى عذابهم الجسماني عذاب أنفسهم برجوع بعضهم على بعض بالتنديم وسوء المعاملة[2].

ولما استقبل السادة الأتباع بتلك التحية، لم يردْ عليهم الأتباع بمثلها فقط بل أتبعوا ذلك بزيادة العذاب لهم قال ﷻ: على لسان الأتباع: ﴿قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ [ص: ٦٠- ٦١]، لكن كيف يجرأ الضعفاء والعبيد والأتباع على مقابلة الإساءة بالإساءة وزيادة ؟ الجواب: قد يكون ذلك لزوال الخوف من صدورهم

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ(٤/ ١٩٠٤) (٢٤٥٠)

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٨٨)

والرهبة من قلوبهم، وقال أبو حيان: لتكون المواجهة لمن كانوا لا يقدرون على مواجهتهم في الدنيا بقبيح أشفى لصدورهم [١]، وقال الزحيلي: المراد به الإخبار من الله تعالى عن انقطاع المودة بين الكفار [٢].

وكل هذا جائز في سبب ردِّ الضعفاء على السادة فقد يكون لزوال الخوف أو التشفي أو زوال المودة.

وهذه الآيات تُحمل على العموم لا يرد بها جماعة بعينها أو أمَّة بذاتها من أهل النار فالكفر ملة واحدة، قال القرطبي: الظاهر من الآية أنها عامة في كل تابع ومتبوع[٣].

إن قوله: ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ [ص: ٦٠] **هذه الجملة القرآنية، ذكرت سبب الخصومة بين أهل النار** التي أدت إلى لعن بعضهم بعضاً والدعاء على بعضهم البعض بزيادة العذاب ألا وهو التقليد الأعمى أو الإتباع على غير بصيرة أو القدوة السيئة.

والإتباع جاء في القرآن مأموراً به ومنهياً، فالمأمور به اتباع الله واتباع رسله وشرائعه وصالح المؤمنين، قال ﷻ: ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: ١٥] والمنهي عنه اتباع أهل الكفر واتباع خطوات الشيطان والهوى والركون إلى الذين ظلموا وغير ذلك، مما ورد النهي عن اتباعه، قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ولقد اتبع الضعفاء السادة واقتدوا بهم في فعل المنكر وترك المعروف وعبادة غير الله وغير ذلك مما جعل المصير واحداً.

---

(١) البحر المحيط في التفسير (٩/ ١٦٩)
(٢) التفسير المنير للزحيلي (٢٣/ ٢٢١)
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٢٤) وينظر: تفسير ابن عطية (٤/ ٥١٢)

قال المناوي: الإتباع: اللحاق بالأول [١]، وقريب من هذا الأســـوة والقدوة، وقال الراغب: الأُسْوَة والإِسْوَةُ كالقدوة والقدوة، وهي الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسناً وإن قبيحاً، وإن سارّا وإن ضارّا[٢].

إن الســادة تكبروا عن قبول الحق قال ﷻ: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ ﴾ [ص: ٢] واتبعهم غيرهم بجهلهم وســـوء اختيارهم ولما اعتذروا عن اتباع غيرهم ما قبل الله منهم عذرا، قال ﷻ: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ ﴾ [الأحزاب: ٦٧] وضــاعف العذاب للجميع قال ﷻ: ﴿ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ۝٣٨ ﴾ [الأعراف: ٣٨] لكن السادة يدخلون النار أولاً، فالجزاء من جنس العمل.

وبعد أن حكى القرآن خصومة أهل الكفر بعضهم مع بعض ممن كانوا أحباباً لهم في الدنيا، انتقل إلى خصومة أهل النار مع من كانوا أعداء لهم في الدنيا من المؤمنين فقال ﷻ: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾

[ص: ٦٢-٦٣] **وتبين الآية الكريمة أن سبب الخصومة يرجع إلى الظن السيء في أهل الإيمان** فقوله:

﴿ كُنَّا نَعُدُّهُم ﴾ أي نظنهم[٣] أو ونزعم [٤] أنهم من الأشــرار، والأشــرار إما بمعنى الأراذل والسفلة الذين لا خير فيهم، ولا جدوى، كما يقال: هذا من شر المتاع، أو لأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشرارا[٥].

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٣٧)
(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٦)
(٣) تفسير حدائق الروح والريحان (٢٤/ ٤٣٤)
(٤) تفسير ابن كثير ط العلمية (٧/ ٧٠)
(٥) تفسير حدائق الروح والريحان (٢٤/ ٤٣٤)

وهذا الظن السيء جعل أهل النار يتسألون عن عدم رؤية أهل الإيمان معهم في النار فقالوا: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ﴾ [ص: ٦٣] قال الحسن البصري: كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخريا وزاغت عنهم أبصارهم محقرةً لهم [١].

فالخصومة سببها سوء ظن أهل الكفر بأهل الإيمان، وهذا الخلق من أقبح الأخلاق لتعلقه بالقلب، قال ابن حجر الهيتمي: الذم على هذه الكبائر[٢] أعظم من الذم على الزنا والسرقة والقتل وشرب الخمر لعظم مفسدتها وسوء أثرها ودوامه، فإن آثارها تدوم بحيث تصير حالا للشخص وهيئة راسخة في قلبه، بخلاف آثار معاصي الجوارح فإنها سريعة الزوال بمجرد الإقلاع مع التوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفرة [٣].

إن سوء الظن من صفات المنافقين والكافرين[٤] سواء أكان بالله ﷻ أم بعباده، وذكر القرآن الكثير من الآيات الدالة على سوء ظن أهل الكفر برسلهم وأهل الإيمان من أقوامهم [٥].

وسوء الظن يؤدي إلى عدم القيام بحق الله وحق العباد حيث يدفع المرء إلى احتقار الخلق والوقوع في أعراضهم وغير ذلك،قال ابن حجر الهيتمي: من حكم بشر

---

(١) النكت والعيون (٥/ ١٠٩)

(٢) يعني ما يتعلق بالقلب

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٤٣)

(٤) قال ﷻ :﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]

(٥) قال قوم عاد لنبيهم هودا عليه السلام:﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٦]وقال أصحاب الأيكة لشعيب عليه السلام:﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٦] وقوله:﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]وغير ذلك من الآيات الكثير.

على غيره بمجرد الظن حمله الشـــيطان على احتقاره وعدم القيام بحقوقه والتواني في إكرامه، وإطالة اللسان في عرضه وكل هذه مهلكات[1].

علاج تلك الخصومة:

من خلال ما سبق يتبن لنا أن علاج تلك الخصومة يتمثل في أمرين:

أحدهما: حسن الإتباع والتقليد على بصيرة و اتخاذ القدوة الحسنة واتباع سبيل المؤمنين، إن الذي أوبق الأتباع الإتباع على غير هدى، قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ – ٢٩].

قال أبو عمر بن عبد البر: قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه فقال ﷻ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، وروي عن حذيفة وغيره، قال «لم يعبدوهم من دون الله ولكن أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم»، وقال الله عز وجل عائباً لأهل الكفر وذاماً لهم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢، ٥٣] وقال ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧] ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء، وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد[2]، يعني ذلك في أمر العقيدة بخلاف الأحكام الفقهية فالتقليد فيها مباح

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١٤٣).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٧٥) بتصرف

قال ابن عبد البر في موضع آخر: أما من قلد فيما ينزل به من أحكام الشريعة عالما بما يتفق له على علمه فيصدر في ذلك عما يُخْزِهِ به فمعذور؛ لأنه قد أتى بما عليه وأدى ما لزمه فيما نزل به لجهله(١).

ثانيهما: استبدال الظن السيء بالظن الحسن، فالظن الحسن يدل على طاهرة القلب ونقاء الصدر وحسن النية وسلامة العقيدة وهذا هو الظن الممدوح في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ٤٦]، وقوله: ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ [التوبة: ١١٨] وهذا له نظائر كثيرة في القرآن، وعن جابر، قال: سمعت النبي ﷺ، قبل وفاته بثلاث، يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن»(٢)، فحسن الإتباع وحسن الظن بالخالق والخلق من أسباب زوال الخصام.

وبعد الانتهاء من الفصل الثالث، أنتقل إلى الفصل الرابع وعنوانه: خصومة إبليس ربه في أمره بالسجود لآدام عليه السلام.

(١) المرجع السا بق (٢/ ٩٩٥)

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٤/ ٢٢٠٥) (٢٨٧٧)

الفصل الرابع: خصومة إبليس ربه في أمره بالسجود لآدام عليه السلام

قال: ﷻ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة ص:٦٥-٨١].

مناسبة الفصل الرابع للثالث:

بعد أن ذكر ربنا ﷻ ما أثاره المشركون من أمور تتعلق بالتوحيد والنبوة والبعث وبلغت الخصومة أشُدَّها حيث قال المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص: ١٦] انتقلت السورة للحديث عن قصص الأنبياء تسلية لرسول ﷺ بإخوانه من الأنبياء، ثم عادت السورة مرة أخرى للحديث عن تقرير وتأكيد ما يتعلق بالتوحيد والنبوة والبعث فقال ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [ص: ٦٥] وأن ما جاء به القرآن نبأ عظيم لا يلتفت إليه المشركون لغفلتهم، ومن هذا الخبر العظيم ما وقع في الملأ الأعلى من خصومة إبليس ربه في أمره بالسجود لآدام عليه السلام، وخصومته لبني آدام.

أسباب خصومة إبليس ربه في أمره بالسجود لآدام عليه السلام:

ذكرت بين يدي السورة الكريمة الإجماع على مكيتها، وأذكر هنا أنها أول سورة مكية ذكر فيها قصة خلق آدام وسجود الملائكة له وعداوته لبني آدام عليه السلام، قال الطاهر: لعل هذه الآية [1]من هذه السورة هي أول ما نزل على النبيء ﷺ من ذكر قصة خلق آدم وسجود الملائكة وإباء إبليس من السجود، فإن هذه السورة في ترتيب نزول سور القرآن لا يوجد ذكر قصة آدم في سورة نزلت قبلها فذلك وجه التوطئة للقصة بأساليب العناية والاهتمام مما خلا غيرها عن مثله وبأنها نبأ كانوا معرضين عنه[2].

وقصة خلق آدام عليه السلام ذكرت في سور كثيرة وهي البقرة وآل عمران والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه و(ص) إلا أنها في سورة البقرة أبين حيث ذكرت خصومة الملائكة ربها في خلق آدام عليه السلام بعد أن أعلمهم بخلقه وخلافته في الأرض وإباء إبليس واستكباره، وجميع السور مكية إلا البقرة فإنها مدنية.

قال الرازي: قولهم: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠] فإن المخاصمة مع الله كفر، قلنا لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب، وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه[3]

إن السؤال من الملائكة ليس من باب الاعتراض قال ابن كثير: إنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك[4].

---

(١) يعني قوله ﷻ:﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [ص: ٦٩]
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٩٧)
(٣) التفسير الكبير (٢٦/ ٤٠٨)
(٤) تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ١٢٤)بتصرف.

وقصة آدام تتلخص في أن الله ﷻ خلق آدام بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته إلا إبليس أبي، وعلمه الأســـماء كلها، وجعله خليفة في الأرض على وجه التشريف والتفضيل ليطبق فيها أحكام الله وأوامره، ولم يُذكر أمر الخلافة إلا في سورة البقرة، وذُكرت قصة آدام في سورة (ص) مرتين مرة على وجه الإجمال في قوله: ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [ص: ٦٩] ومرة على وجه التفصيل في قوله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾ [ص: ٧١].....الآيات ووقع قوله: ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [ص: ٧٠] اعتراض بين الإجمال والتفصيل.

قال الشوكاني: الضمير في ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ راجع إلى الملأ الأعلى، والخصومة الكائنة بينهم هي في أمر آدم، وجملة ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ معترضة بين اختصامهم المجمل وبين تفصيله بقوله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ (١).

فلما أبى واستكبر وخرج عن طاعة ربه طرد من الجنة، فلما طرد سأل ربه النظارة إلى يوم البعث، فأجاب الله سؤاله لكن أجله إلى وقت النفخة الأولى.

ومن خلال القراءة المتدبرة لقصة خَلْق آدام عليه السلام، نجد أن سبب تلك الخصومة يرجع إلى أمرين الكبر والحسد، قال ﷻ: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * ﴾ [ص: ٧٣ – ٧٦].

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٠٨)

وقبل الحديث عن أسباب الخصومة على وجه التفصيل، أذكر أن معصية إبليس تكررت في مواضع كثيرة ولعل ذلك لما يأتي:

أولاً: إتيانه الأمر من الله مباشرة بالسجود لآدام ومع ذلك لم يمتثل لأمره ﷻ، فما أقبح فعله إذ لم يستح من ربه، قال القائل: هب البعث لم تأتنا رسله.. وجاحمة النار لم تضرم. أليس من الواجب المستحق.. طاعة رب الورى الأكرم [١].

ثانياً: أنه وحده من جملة المأمورين بالسجود من أبي واستكبر وكان من العالين، ومن المعلوم أن الجماعة تعين على الطاعة لذا شرعت الجماعة في الصلوات المفروضة والعيدين وغيرهما، والإنسان ابن بيئته يتأثر بمن حوله ويتابعهم والطبع يسرق من الطبع، ومع ذلك ما استجاب لأمر الله، رغم سجود كل من أمر بالسجود.

ثالثاً: أنه هو أول من عصى الله بل وأتى بأول معصية عُصي الله بها وهي الكبر بل أتى بأفحش أنواع الكبر وهو الكبر على الله، فما أقبح ما جاء به.

إن الكبر أول معصية عُصي الله بها **وهو أول أسباب الخصومة**، وقد جاء تعريفه في السنة النبوية، فعن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَرُ الحق، و غَمْطُ الناس»[٢]، فالكبر هو عدم قبول الحق واحتقار الناس وانتقاصهم.

وأنواع الكبر ثلاثة: الكبر على الله ﷻ وهو أفحش أنواع الكبر كتكبر فرعون ونمرود، وإما على رسوله بأن يمتنع من الانقياد له، وإما على العباد بأن يستعظم نفسه ويحتقر غيره وهذا وإن كان دون الأولين إلا أنه عظيم إثمه أيضاً[٣].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٧٤)

(٢) صحيح مسلم (١/ ٩٣)

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ١١٨) بتصرف.

وذكر القرآن الكريم والسنة النبوية عقوبات المتكبر فمنها:

(١) إن الله ﷻ يصـــرف قلوب أهل الكبر والعناد عن الانتفاع بآيات القرآن فلا يجد الهدى طريقاً إليها قال ﷻ: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥ ﴾ [غافر: ٣٥] وهذه الآيات لها نظائر كثيرة(١).

(٢) الكبر سبب في الطرد من الجنة ودخول النار ومحكوم على صاحبه بالذلة والهوان، قال ﷻ: ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣ ﴾ [الأعراف: ١٣].

(٣) لا يكلم الله المتكبر يوم القيامة كلاماً يسره ولا ينظر إليه نظرة رحمة ولا يثني عليه لا ســيما الفقير المتكبر لأنه ليس لديه مقتضــى للكبر والبواعث الداعية إليه، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: " ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم – قال أبو معاوية: ولا ينظر إليهم – ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر "(٢).

(٤) وعدَّ عبد الله بن عمر –رضــي الله عنهما– المتكبر من إخوان الشـياطين، فقد رأى رجلا يختال في مشـــيته ويجرّ إزاره فقال: إن للشـــيطان إخوانا كررها مرتين أو ثلاثا(٣)

---

(١) منها [غافر: ٣٥]، [الروم: ٥٨، ٥٩]

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، بيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة..... (١/ ١٠٢) (١٠٧)

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٠)

هذه بعض العقوبات التي تصـــيب المتكبر على وجه العموم مما يدل على قبح المتصف بها إذ نازع الله ﷻ في بعض صفاته فهو سبحانه الكبير والأكبر والمتكبر، وتلك الصفة تحجب المرء عن فعل الخيرات وتدفعه إلى فعل المنكرات- أعاذنا الله منها- لذا فإن إبليس اســـتحق اللعن والطرد من رحمة الله قال ﷻ: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤ ﴾ [ص: ٧٤]، قال الشوكاني: لكن إبليس استكبر أي: أنف من السجود جهلا منه بأنه طاعة لله، وكان استكباره استكبار كفر، فلذلك كان من الكافرين أي: صار منهم بمخالفته لأمر الله واستكباره عن طاعته، أو كان من الكافرين في علم الله سبحانه(١). وقال ﷻ: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ ﴾ [ص: ٧٥]،قال الرازي: المعنى: أستكبرت الآن أم كنت أبدا من المتكبرين العالين(٢)

أما الحسد وهو السبب الثاني للخصومة فهو داء مذموم يجعل صاحبه في هم وغم وغيظ بلا انقطاع، إذ مقتضى أمل الحاسد زوال الفضل عن صاحبه ووصوله إليه وإن كان لا يستحقه، قال الشاعر:

(إن يحسدوني فَإِنِّي غير لائمهم... قبلي من النَّاس أهل الْفضل قد حسدوا)

(فدام لي وَلَهُم مَا بِي وَمَا بهم..... وَمَات أكثرنا غيظا بِمَا يجد)(٣)

فالحسد: تمني زوال نعمة عن مستحق لها(٤)، وهذا من أدواء الأمم قبلنا كاليهود وغيرهم قال ﷻ: **{ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَـــدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ }** [البقرة: ١٠٩]، ولقد نهي عنه رسول الله

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥١٠)
(٢) تفسير الرازي (٢٦/ ٤١٣)
(٣) درة الغواص في أوهام الخواص (ص: ١٦٧)
(٤) التوقيف (ص: ١٣٩)

ﷺ فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺقال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا»(١).

وقال السمرقندي: قال أحد الحكماء: إن الحسد أول ذنب عصي الله تعالى به في السماء، وأول ذنب عصي الله تعالى به في الأرض(٢).

وهذا ظهر جلياً في إجابة إبليس ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦]فالمعنى أني لو كنت مساويا له في الشرف لكان يقبح أمري بسجودي له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيرا منه بأن أصله من النار والنار أشرف من الطين، فصح أن أصله خير من أصل آدم ومن كان أصله خيرا من أصله فهو خير منه(٣).

ولخص الإمام الرازي أسباب خصومة إبليس ربه في أمره بالسجود لآدام فقال: اعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر، وذلك لأن إبليس، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، والكفار إنما نازعوا محمدا عليه السلام بسبب الحسد والكبر، فالله تعالى ذكر هذه القصة هاهنا ليصير سماعها زاجرا لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين(٤).

علاج تلك الخصومة:

تعالج تلك الخصومة بما يأتي:

أولاً: تعالج تلك الخصومة بالتواضع الذي يدل على طاهر القلب ونقاء الصدر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٨/ ١٩) (٦٠٦٤).

(٢) تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: ١٧٨) بتصرف.

(٣) تفسير الرازي (٢٦/ ٤١٣)

(٤) المرجع السابق (٢٦/ ٤٠٩)

وحسن السريرة، وهو ضد الكبر، والتواضع: تحقير النفس وإهانتها بالنسبة إلى عظمة الله وقبول الحق بحسن الخلق(١).

ولقد أمر الله نبيه ﷺ بلين الجانب وخفض الجناح وهو كناية عن التواضع فقال ﷻ: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وأمر الله عباده بالتواضع وخفض الجناح لا سيما للوالدين فقال ﷻ: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وتلك الصفة من صفات عباد الرحمن قال ﷻ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

فالتواضع هو الذلة لله ولرسوله وعباده المؤمنين، وأن يخرج المرء من بيته ولا يرى لنفسه فضلاً على أحد لأن الله نثر الفضل بين الناس، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]، فكلما تواضع المرء زاده الله رفعة في الدنيا وأجراً في الآخرة، فعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»(٢).

وأما الحسد فإنه يعالج بالمحبة والود والألفة والرأفة والرحمة والرفق والرضا بما قسمة الله، ومحبة الغير وغير ذلك.

ثانياً: عدم الاهتمام والرد على الخصم في كل ما يتفوه به ويدعيه بل هناك مواقف السكوت فيها أبلغ من الكلام، قال الطاهر: فإبليس لما قال: ﴿ قَالَ أَنَا خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي

(١) التوقيف (ص: ١١١)

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع (٤/ ٢٠٠١) (٢٥٨٨)

مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦]، لم يردْ في القرآن أن الله ردَّ عليه هذا التأصيل لأنه أحقر من ذلك فلعنه وأطرده لأنه ادعى باطلا وعصى ربه استكبارا: وطرده أجمع لإبطال علمه ودحض دليله(١)، ولما اتهم قوم عاد نبيهم هودا بالسفاهة والكذب ردَّ عن نفسه السفاهة ولم يرد عن نفسه الكذب لأنها دعوة ساقطة لا يلتفت إليها، وهم يعتقدون صدقه ولكنه العناد والكبر قال ﷻ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ [الأعراف: ٦٦، ٦٧].

إن الكبر والحسد من الأخلاق الباطنية المذمومة وعلاجها التواضع وحب الخير للناس.

وبعد الانتهاء من الفصل الرابع أنتقل إلى الفصل الخامس وعنوانه: خصومة إبليس ربه في شأن بني آدم عليه السلام.

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠٣)

الفصل الخامس: خصومة إبليس ربه في شأن بني آدم عليه السلام

قال ﷻ: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة ص:٨٢-٨٨].

مناسبة الفصل الخامس للرابع:

بعد أن ذكرت الآيات أَمْر الله ملائكته بالسجود لآدم وسجودهم له جميعاً في وقت واحد إلا إبليس فإنه أبى حسدا وكبرا، فطرد ولعن، فلما طرد ولعن طلب من الله النظارة إلى يوم البعث فأنظره الله إلى النفخة الأولى، فلما اطمأن أقسم بعزة الله وسلطانه لأغوين بني آدم أجمعين إلا أهل الإخلاص.

أسباب خصومة إبليس ربه في شأن بني آدم:

إن إبليس أقسم في هذه السورة بقوله: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ [ص: ٨٢] وقال في الأعراف: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ [الأعراف: ١٦] وقال في الحجر: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ [الحجر: ٣٩] ولا تنافي بين الجميع، قال الشوكاني: لا تنافي بين القسمين فإن إغواءه إياه من آثار عزته سبحانه(١).

وأقسم بعزة الله دون غيرها من الصفات، لأن إغواءه إياه، أثر من آثار قدرته وعزته، وحكم من أحكام قهره وسلطنته، ولهذه النكتة الخفية ورد الحلف هنا بالعزة، مع أن الصفات اللائقة للحلف كثير (٢) وقال الطاهر: قسم إبليس بها ناشىء عن علمه بأنه لا يستطيع الإغواء إلا لأن الله أقدره ولولا ذلك لم يستطع نقض قدرة الله تعالى(٣)، أيما

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٥١٢)
(٢) تفسير حدائق الروح والريحان (٢٤/ ٤٥١)
(٣) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠٦)

ما كان التعليل فهو دليل عن إدراك إبليس لقدرة الله وعظمته وأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا بعلمه وقدرته ﷻ.

هذه هي آخر الخصومات التي وردت في السورة الكريمة حيث أقسم إبليس بغوايته لبني آدام بعد أن أخرج أبويهم من الجنة، فجعل من نفسه وجنوده أعداء لبني آدام، فأصبحت العداوة مورثة لبني آدام تبعاً لعداوته لأبيهم لأن تفضيل آدام تفضيل لذريته وتكريمه تكريماً لهم، بل ذكر القرآن تكريم بني آدام على وجه الخصوص فقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهذا من أشد أنواع الخصومات، وكان يكفيه خصومته لأبيهم وإخراجه من الجنة لكنه الحسد والكبر والغواية المتأصلة في طبعه فلما فضل الله آدام ظهر ما كان يخفيه من الحسد والكبر والتبجح بالمعصية، قال الطاهر: قد بدت من إبليس نزعة كانت كامنة في جبلته وهي نزعة الكبر والعصيان، فالحوادث والمضائق معيار الأخلاق والفضيلة(١).

إن إبليس لكي يثبت صدقه استثنى من ذلك أهل الإخلاص فقال ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣] وأهل الإخلاص هم من اختارهم الله فجعلهم من أهل طاعته أو أقبلوا عليه بقلوبهم، وعلل الرازي الغرض من هذا الاستثناء فقال: لأنه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوي الكل لكان يظهر كذبه حين يعجز عن إغواء عباد الله الصالحين(٢).

إن الحسد والكبر سببا الخصومة أيضاً بين إبليس وبني آدام، ولقد بلغت الخصومة أشدها فأصبح الشيطان هو عدو الإنسان الأول والأكبر قال ﷻ: ﴿ وَلَا

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٠١) بتصرف
(٢) تفسير الرازي (٢٦/ ٤١٥)

يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٢] وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ذكر خمس مرات، لبيان شدة عداوته.

إن الشيطان ينازع بني آدم ويتسلط عليهم في كل شيء في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأموالهم وأولادهم ومأكلهم ومشربهم ونومهم وقيامهم وصحتهم وسقمهم وفرحهم وطرحهم وعند موتهم، فعن أبي سفيان، عن جابر، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه[1]، وقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم»[2]

ولم يسلم من إغوائه أحد حتى آباء الأنبياء وأولادهم وأزواجهم بل أضل أقواماً بأجمعهم قال ﷻ: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل: ٢٤] وتسبب في هلاك أمم بأكملها فلم ينج منها إلا القليل فقال ﷻ: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨].

علاج تلك الخصومة:

إن نجاة بني آدم من عداوة إبليس تكون بالإخلاص لله والتوكل عليه والمداومة على ذكره قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وبالكلام الطيب قال ﷻ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب استحباب لعق الأصابع والقصعة (٣/ ١٦٠٧) (٢٠٣٣)

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به (٤/ ١٧١٢) (٢١٧٤)

ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٣] والكلام في هذا يحتاج إلى بحث مستقل.

وبعد ذكر تلك الخصومات ختمت السورة الكريمة بإخبار رسول الله أهل الشرك بأن دعوته ليست لغرض من أغراض الدنيا وحظ من حظوظها وأنه ﷺ يؤدى ما أمره الله به بلا زيادة ولا نقصان وأن القرآن الذي أتى به ذكر للجن والإنس، وسوف يدرك ذلك المنكرون في حياتهم ومن وافته منيته سيدركه بعد موته، فختام السورة إثبات ما كان ينكره المشركون في بداية السورة بعد إقامة الأدلة عليه قال ﷻ: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة ص:٨٦-٨٨].

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على أشرف خلقه وتاج رسله وعلى آله وصحبه وسلامه والحمد لله وحده.

فرغت منه بعد صلاة الظهر يوم الأربعاء: ٣١/٧/ ٢٠٢٤ م، الخامس والعشرين من محرم لعام ١٤٤٦ هـ.

الخاتمة

أحمد الله -ﷻ- أن يسر لي إتمام هذا البحث فهو سبحانه المستعان وعليه التكلان ومنه الهداية وبه التوفيق، فقد منَّ الله على بتفسير سورة (ص) تفسيراً موضوعياً متناولاً الخصومات التي وردت في السورة الكريمة مفصحاً عن أسبابها و مبيناً لعلاجها من خلال التفسير الموضوعي لها، وسأذكر بعض الدروس التي وقفت عليها:

(١) أن الخصومة في اللغة تدور حول الجدال والنزاع والميل إلى أحد جانبي الشيء.

(٢) أن الخصومات التي ذكرها القرآن الكريم أخذت صوراً متعددة وأنماطاً مختلفة منها ما وقع في الدنيا وانتهى وبقيت منه العبرة، ومنه مازال قائماً، ومنها ما هو حتمي الوقوع في الآخرة.

(٣) أن الخصومات في هذه السورة من طرف واحد إلا ما كان بين أهل النار بعضهم مع بعض.

(٤) أن الخصومة في جانب الله من قبيل المجاز.

(٥) الكبر والعناد خلق مشترك في جميع الخصومات الواردة في السورة، فالمشركون تكبروا عن هدي القرآن وأحد الأخوين تكبر بماله على أخيه والسادة تكبروا على الأتباع وما مانع إبليس عن السجود إلا الكبر.

(٦) ترتب على إعجاب أهل الشرك الكثير من الصفات المذمومة منها إنكار التوحيد والدار الآخرة وبعثة رجل من أنفسهم بالنبوة ومنها الحسد والشك، والإعجاب أتى من تقليد الآباء والاعتزاز بهم ومن العادات المورثة.

(٧) القصص القرآني كلها حقائق وقعت أحداثها في الدنيا أو ستقع في الآخرة، غايته غرس المبادئ الحسنة واجتثاث الأخلاق السيئة من النفوس في ثوب تربوي قشيب يأخذ بالألباب، ويهمل في حالات كثيرة، الناحية الزمانية، والمكانية، وأسماء الأشخاص فالأهم من القصة أخذ العبرة.

(٨) لعل القرآن بدأ بقصة داود في هذه السورة دون غيرها من قصص الأنبياء لوقوع الخصومة بين يديه من قبل الخصمين اللذين تسورا المحراب وفيها من العبر والعظات ما يستضيء بها رسول الله ﷺ في خصومة مشركي مكة له، وقد أُعطي داود قوة في العبادة وجُمع له ما لم يُجمع لغيره من الملك والعلم والنبوة.

(٩) إن سليمان ابتلي بالسراء وأيوب ابتلي بالضراء وأثنى الله عليها ثناء واحد فقال ﷻ: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠].

(١٠) أن جميع من ذُكر من الأنبياء أسوة في الصبر على البلاء.

(١١) من التشريف لهؤلاء الأنبياء اقتداء رسول الله فهو سيد ولد آدام وصاحب الشفاعة العظمى وقد سبقهم ﷺ في المنزلة.

(١٢) البغي هو طلب الاستعلاء بغير وجه حق وهو نتاج صفات نفسية قبيحة، وعلى قبحه لا يهدم ما بين الناس من أواصر المحبة والعلاقات الطيبة.

(١٣) القاضي لا يمنعه التعدي عليه من قول الحق وإقرار العدل، فإن الخصمين تسورا المحراب ودخلوا علي داود من غير إذن ووجهوا إليه نصحاً بعدم الميل عن الحق، وهذا لا يليق بمنصب القضاء، وما منعه هذا من الصدع بالحق معرضاً عن جهالتهم.

(١٤) إن فتنة داود لا علاقة لها بما وقع بين الخصمين من بغي فهذا شيء وهذا شيء آخر، وهو الحق تعظيماً لمقام النبوة.

(١٥) القائم على أمر قد يُذكَّر بالقيام به من باب الديمومة والتثبيت، فقد أوصى ربنا داود بالحكم بالعدل وهو قائم به وعدم اتباع الهوى وهو بعيد عنه.

(١٦) التحية من جنس العمل فتحية أهل النار التلاعن والدعاء على بعضهم البعض بزيادة العذاب أما أهل الجنة فتحيتهم فيها سلام، والسادة يردون النار قبل الضعفاء.

(١٧) أن التحية بـــ (مرحبا) وردت في السنة النبوية، حيَّا بها الأنبياء رسول الله في رحلة المعراج، وحيَّا بها رســـول الله أم هانيء بنت عمه يوم فتح مكة، وحيَّا بها فاطمة ابنته، و الوفود التي وفدت إليه.

(١٨) من أسباب دخول أهل النار إياها الإتباع على غير هدى وسوء الظن، فالإتباع منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم، والظن منه ما هو حسن ومنه ما هو سيء، والإسلام يأمر بكل محمود وحسن إذ بها يقترب العبد لربه.

(١٩) الحسد خلق مشترك في جميع الخصومات، فالمشركون حسدوا رسول الله على اصــطفاء الله له بالنبوة والأخ حســد أخاه على القليل من ماله وإبليس حســد آدام وذريته على تفضيل الله لهما.

(٢٠) الحوادث والمضايق معيار الأخلاق والفضيلة، فإبليس ظهر كبره وحسده بعد أن أمر بالسجود تحية لآدام.

(٢١) إن علاج الخصومات على وجه العموم يكون بــالصبر، والتأسي بمن سبق من الأنبياء والصــالحين، والتجاهل لقول الخصــم أحياناً، والتذكير بأن عند الله خزائن كل شيء، وحسن الظن بالله والناس، واتباع الغير على بصيرة، والتواضع، والجهر بالحق في موضعه.

(٢٢) إن كل سورة من سور القرآن لها شخصية مستقلة بذاتها وأهداف واضحة وهذا أوضح من شمس الضحى وأتم من بدر التمام.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أحكام القرآن لابن العربي. علَّق عليه: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية- بيروت.ط٣: ١٤٢٤ هـ.
- أنوار التنزيل للبيضـــاوي. المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشـــلي. دار إحياء التراث العربي – بيروت. ط ١: ١٤١٨ هـ.
- أسرار ترتيب القرآن. للسيوطي. دار الفضيلة للنشر والتوزيع.
- إعراب القرآن للنحاس. دار الكتب العلمية- بيروت. ط١: ١٤٢١ هـ.
- إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش. دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية. ط٤: ١٤١٥ هـ.
- إحياء علوم الدين للغزالي. دار المعرفة – بيروت.
- بصـــائر ذوي التمييز للفيروز آبادي. المحقق: محمد علي النجار. المجلس الأعلى للشـــئون الإسلامية القاهرة.
- البيان في عدّ آي القرآن، للداني.المحقق: غانم قدوري الحمد. مركز المخطوطات والتراث – الكويت. ط١: ١٤١٤هـ.
- البحر المحيط لأبي حيان.المحقق: صدقي جميل. دار الفكر – بيروت. ط: ١٤٢٠ هـ.
- البرهان للزركشي.المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه. ط١: ١٣٧٦ هـ.
- تفسير حدائق الروح والريحان للأمين الهرري. إشراف: د: هاشم محمد علي. دار طوق النجاة- بيروت. ط ١: ١٤٢١ هـ.
- تفسير القرآن للسمعاني. المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم. دار الوطن، الرياض – السعودية. ط١: ١٤١٨هـ.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير. المحقق: محمد حسين شمس الدين. دار الكتب العلمية بيروت. ط: ١٤١٩ هـ.
- تنبيه الغافلين للسمرقندي. دار ابن كثير، دمشق – بيروت.ط٣: ١٤٢١ هـ.
-التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج د: وهبة بن مصطفى الزحيلي. دار الفكر المعاصر – دمشق.ط٣: ١٤١٨ هـ.

- التمثيل والمحاضـــرة للثعالبي.المحقق: عبد الفتاح محمد الحلو. الدار العربية للكتاب.ط٢: ١٤٠١ هـ.
- التعريفات للجرجاني. دار الكتب العلمية بيروت. ط١: ١٤٠٣هـ.
- التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور. الدار التونسية للنشر. ط: ١٩٨٤ هـ.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمحمد سيد طنطاوي. دار نهضة مصر للطباعة، الفجالة / القاهرة. ط١.
- التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي. عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت–القاهرة.ط١: ١٤١٠هـ.
- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري. المحقق: أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة. ط١: ١٤٢٠ هـ
- جمال القراء وكمال الإقراء للسخاوي.تحقيق: د. مروان العطيَّة. دار المأمون للتراث – دمشق.ط: ١: ١٤١٨ هـ
- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر. تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. دار ابن الجوزي، السعودية.ط١: ١٤١٤ هـ
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه للبخاري. المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة. ط١: ١٤٢٢هـ.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. تحقيق: أحمد البردوني. دار الكتب المصرية – القاهرة. ط٢: ١٣٨٤هـ.
- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد لصهيب عبد الجبار.ط١: ٢٠١٤.
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور: عبد العظيم المطعني. مكتبة وهبة.ط١: ١٤١٣ هـ.
- دلائل النبوة للبيهقي. دار الكتب العلمية – بيروت.ط١١٤٠: ٥ هـ.
- درة الغواص في أوهام الخواص للحريري. المحقق: عرفات مطرجي. مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت.ط١: ١٤١٨ هـ.
- روح البيان لإسماعيل حقي. دار الفكر – بيروت.
- الروض الأنف للسهيلي. المحقق: عمر عبد السلام السلامي. دار إحياء التراث العربي– بيروت.ط١: ١٤٢١هـ.

- زاد المسير لابن الجوزي. المحقق: عبد الرزاق المهدي. دار الكتاب العربي – بيروت. ط١: ١٤٢٢ هـ.
- الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي. دار الفكر.ط١: ١٤٠٧هـ.
- سنن الترمذي. المحقق: بشار عواد معروف. الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت. ط: ١٩٩٨ م
- سنن ابن ماجه.المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد –.دار الرسالة العالمية.ط١: ١٤٣٠ هـ.
- سير أعلام النبلاء للذهبي. ط: دار الحديث– القاهرة. ط: ١٤٢٧هـ.
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. دار المعارف.ط: ٥.
- شرح ديوان المتنبي للعكبري. المحقق: مصطفى السقا. دار المعرفة – بيروت.
- الصناعتين لأبي هلال العسكري. المحقق: علي محمد البجاوي. المكتبة العنصرية – بيروت.ط١٤١٩ هـ.
- العقد الفريد لابن عبد ربه. دار الكتب العلمية بيروت.ط١: ١٤٠٤ هـ
- فتح القدير للشوكاني. دار ابن كثير – دمشق–بيروت. ط١: – ١٤١٤ هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر. دار المعرفة – بيروت. ١٣٧٩هـ.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم. مكتبة الخانجي – القاهرة.
- الكشاف للزمخشري. دار الكتاب العربي – بيروت. ط٣: ١٤٠٧ هـ.
- الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم لمحمد الأمين بن عبد الله الهَرَري. دار المنهاج – دار طوق النجاة.ط١: ١٤٣٠ هـ
- الكامل في اللغة والأدب للمبرد. المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربي – القاهرة.ط٣: ١٤١٧ هـ.
- لسان العرب لابن منظور. دار صادر بيروت.ط٣: ١٤١٤ هـ.
- مدارج السالكين لابن القيم. دار الكتاب العربي – بيروت.ط٣: ١٤١٦ هـ.
- مسند أحمد بن حنبل. المحقق: أحمد محمد شاكر. دار الحديث – القاهرة. ط١: ١٤١٦ م.
- مسند أحمد بن حنبل. المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون. مؤسسة الرسالة. ط١: ٢٠٠١ م.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس. المحقق: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر. ط: ١٣٩٩هـ.

- مجلة المنار (كاملة ٣٥ مجلدا)،المؤلف: مجموعة من المؤلفين، محمد رشيد رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ) وغيره من كتاب المجلة.
- مفاتيح الغيب للرازي. دار إحياء التراث العربي – بيروت. ط٣: ١٤٢٠ هـ.
- مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي لأحمد قبش بن محمد نجيب.
- محاسن التأويل للقاسمي. المحقق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية.ط١: ١٤١٨ هـ.
- مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم. دار القلم.ط١١٤٢٦: ٤هـ.
- منحة الباري بشرح صحيح البخاري لابن زكريا الأنصاري. ت: سليمان العازمي. مكتبة الرشد الرياض.ط١: ١٤٢٦ هـ.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية – بيروت.ط١: ١٤١١هـ
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله لمسلم بن الحجاج. المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي.دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- المحرر الوجيز لابن عطية. المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية – بيروت. ط١: – ١٤٢٢ هـ.
- المحرر في أسباب نزول القرآن لخالد المزيني. دار ابن الجوزي، الدمام.ط١: ١٤٢٧.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي. دار إحياء التراث العربي – بيروت.ط٢: ١٣٩٢هـ.
- المفردات للراغب الأصفهانى.المحقق: صفوان عدنان الداودي. دار القلم، الدار الشامية – دمشق. ط١: – ١٤١٢ هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي. دار الكتاب الإسلامي القاهرة.
- النكت والعيون للماوردي. المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم. دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.
- الوجيز للواحدي. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. دار القلم , الدار الشامية – دمشق، بيروت.ط١: ١٤١٥ هـ.

فهرس الموضوعات

ملخص البحث ٦٧١
المقدمة: ٦٧٣
أهمية الموضوع ٦٧٤
إشكاليات البحث ٦٧٤
حدود البحث ٦٧٤
أسباب اختيار الموضوع ٦٧٥
خطة البحث ٦٧٥
منهج البحث ٦٧٦
الدراسات السابقة ٦٧٧
تمهيد: تعريف الخصومة وأنواعها والتعريف بالسورة الكريمة ٦٧٨
المطلب الأول: الخصومة في اللغة والاصطلاح: ٦٧٨
المطلب الثاني: من أنواع الخصومات في القرآن: ٦٧٩
المطلب الثالث: التعريف بالسورة الكريمة ويتضمن ما يأتي: ٦٨٣
الفصل الأول: خصومة الكفار مع النبي ﷺ ٦٨٦
الفصل الثاني: اختصام الخصمين عند داود عليه السلام ٧٠٠
الفصل الثالث: خصومة أهل النار (تخاصم أهل النار) ٧١٩
الفصل الرابع: خصومة إبليس ربه في أمره بالسجود لآدام عليه السلام ٧٢٨
الفصل الخامس: خصومة إبليس ربه في شأن بني آدم عليه السلام ٧٣٧
الخاتمة ٧٤١
فهرس المصادر والمراجع ٧٤٤
فهرس الموضوعات ٧٤٨